لا يفمز الساق من أين ولا نصب
ولا يعض على شرسوفه الصفر

واصلها على هذا القول مأينة ، فحولوا ضمة الياء الى الهمزة ، وجعلوا الياء واوا لانضمام ما قبلها ، كما قال الآخر :

وكنت اذا جاري دعا لمضوفة
أشمر حتى ينصف الساق مئزري

فمضوفة مفعلة من الضيافة ، واصلها مضيفة ، ففعل بها ما فعل بمئونة . وتكوين المئونة فعولة من منت الرجل ، فتهمز الواو لانضمامها ، كما قال امرؤ القيس :

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها
نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فنئوم فعول من النوم ، همز الواو لانضمامها » وامثال ذلك في الكتاب كثيرة .

وعنى في الحشو ايضا باللغات . فكان يقول : « اخبرنا أبو العباس قال : يقال : هو الباز وهو البازي ، فمن قال : هو الباز ، قال في التثنية : هما البازان والجمع البيزان ، على مثال قولهم : الخال والخيلان ، ومن قال : هو البازي قال في التثنية : هما البازيان ، وفي الجمع البزاة على مثال القاضي والقضاة . قال ابو بكر : في الباز لغة ثالثة لم يذكرها في هذا الكتاب وذكرها لنا في بعض أماليه قال : ويقال : هو البأز ، بهمز الالف مثل الفأس والكأس ، وتجمعه في ادنى العدد من ثلاثة الى عشرة فتقول : ثلاثة ابؤز ، كما تقول : افؤس واكؤس . فاذا كثرت فهي البؤوز ، كما تقول كؤوس وفؤوس . فجمع القلة على افعل مثل الأفلس والأبحر، وجمع الكثرة على الفعول مثل الفلوس والبحور . قال أبو بكر : في الباز لغة رابعة ، يقال: هو البازي ، بياء مشددة تشبه ياء النسبة .. » .

وكثر في حشوه النقد وخاصة نقد قطرب وابن قتيبة . واقام ابن الانباري كثيرا من نقده على تعارض الاقوال المختلفة من اللغويين . فأورد اقوالهم وقارن بينها ليخلص الى الراي الصواب عنده ، مثل (20) : « القرء حرف من الاضداد . يقال : القرء للطهر ، وهو مذهب أهل الحجاز ، والقرء للحيض ، وهو مذهب أهل العراق . ويقال في جمعه اقراء وقروء . وقال الاصمعي عن ابي عمرو : يقال : قد دفع فلان الى فلانة جاريته تقرئها ، يعني أن تحيض ثم تطهر للاستبراء . ويقال : القرء هو الوقت الذي يجوز ان يكون فيه حيض ، ويجوز ان يكون فيه طهر ... ويقال : قد اقرأت النجوم اذا غابت . قال أبو بكر : وهذا حجة لمن قال : الاقراء الاطهار ، لانها خرجت من حال الطلوع الى حال الغيبة » وقال الاصمعي وابو عبيد : يقال : قد اقرأت المرأة اذا دنا حيضها ، واقرأت اذا دنا طهرها . قال ابو بكر : هذه رواية أبي عبيد عنهما . وروى غيره : اقرأت اذا حاضت ، واقرأت اذا طهرت . وحكى بعضهم قرأت ، بغير الف في المعنيين جميعا . والصحيح عندي ما رواه ابو عبيد » .

وقد رأينا — فيما سبق — ان ابن الانباري نقد بعض الاضداد ، لان المعنيين لصيغتين مختلفين لا صيغة واحدة مثل فعل وافعل ، او لان المعنى الثاني للفظ غير شائع الاستعمال ، او لعدم وجود شواهد تدعم المعنى الثاني . ويمكن ان نضيف اليها ما يحدد السياق معناه ، مثل (21) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم اليت المرأة تألى ، اذا عظمت اليتها ، واليت الشاة وغيرها ، اذا قطعت اليتها . قال ابو بكر : وليس هو عندي من الاضداد ، لان كل واحد من الحرفين ينفرد بمعنى واحد ، ولا يقع على معنيين متضادين » .

واذا قارنا بين نقد أبي حاتم ونقد ابن الانباري ، وجدنا الاول منهما معتدا بنفسه ومعلوماته ، عنيفا في هجومه ، ولم نجد شيئا من ذلك عند الثاني . فابن الانباري لا يقارن اقوال قطرب او غيره من مؤلفي الاضداد بمعارفه هو كما يفعل ابو حاتم بل باقوال غيره من اللغويين . ولم يغلط ابن الانباري احدا ، ولا حجب ثقته عنه ، ولا عد اقواله من الاحتيالات كما فعل أبو حاتم . وبينا كان ابو عبيدة هدف نقد أبي حاتم الاول ، كان ابن قتيبة الهدف الاول لنقد ابن الانباري .

ومن مظاهر قدرة ابن الانباري في التمحيص حذفه ما حذف من اضداد ابن السكيت وابي حاتم . فقد حذف من الاول ارقام 14 ، 17 ، 87 ، 96 ،

(20) 8 .
(21) 322 .

100 ، 103 ، 105 . وكلها كان ابو حاتم قد حذفها غير رقم 94 الذى اورده فيما شك فيه من اضداد ، ولعل ذلك الذى دعا ابن الانباري الى تركه .

وحذف من ابي حاتم ثلاثة انواع من الاضداد : اولها ما انفرد به ، مثل 246 ، 272 ، 244 ، 266 ، 275 ، 166 ، 109 ، 242 ، 173 ، 236 . واكثرها مما شك فيه ابو حاتم نفسه ، او اقيم على اساس خاطيء 109 ، 166 ، 180 ، 236 . ثانيها بعض ما كان على صيغة فعول ، مثل 160 – 163 . ثالثها بعض ما كان على صيغة افتعل وانفعل من الاجوف ، او افتعل من المضاعف ، مثل 118 ، 175 . وكان حذفه لما حذف من هذه الصيغ اكتفاء بما ذكره هو منها لا لشكه فيها .

واخيرا وفى « باستيفاء الاحتجاج واستقصاء الشواهد » . فاتى بالانواع المختلفة من الشواهد ؛ من القرآن ، والحديث ، والشعر ، والامثال والاقوال . كما فعل سابقوه . وقد مرت علينا امثلة ذلك . وعني فى كثير من الآيات والاحاديث وتفسيرها ، بايراد سند اقواله . وكانت عنايته هذه اكبر من عناية ابي حاتم . فكان يقول (22) : « اخبرنا ابو محمد جعفر بن احمد بن عاصم قال : حدثنا هشام بن عمار قال : حدثنا ابو عبد الرحمن عثمان بن عبد الرحمن الجزري قال : حدثنا عبيد الله بن ابي العباس ، عن جويبر ، عن الضحاك قال : سأل نافع بن الازرق عبد الله بن العباس عن قول الله عز وجل : ( وانتم سامدون ) فقال : معناه لاهون . فقال نافع : وهل كانت العرب تعرف هذا فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، اما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي عادا حيث تقول :

بعثت عاد لقيما
وابا سعد مريدا

وابا جلهمة الخير
ـر فتى الحي العنودا

قيل : قم فانظر اليهم
ثم دع عنك السمودا

وكان يأتي بالشواهد على الامور الاستطرادية فى كلامه . ويعلق على الشواهد ويشرحها ويطيل احيانا ، وقد يبين ما فى الشواهد الشعرية من روايات . قال مثلا فى مادة « ماتت بجمع » (23): « وقال الشاعر يذكر ماء ورده :

وردناه فى مجرى سهيل يمانيا
بصعر البرى من بين جمع وخادج

فالجمع : التى فى بطنها ولد ، ويقال : بجمع بكسر الجيم . والخادج : التى القت ولدها ويقال : قد خدجت الناقة تخدج اذا القت ولدها قبل اوان النتاج وان كان تام الخلق ، واخدجت تخدج اذا القته ناقص الخلق وان كان لتمام » . وقال فى « طرب » (24) : « وقال لبيد فى معنى الحزن .

واراني طربا فى اثرهم
طرب الواله او كالمختبل

معناه : واراني حزينا . ويروى : او كالمحتبل ، بالحاء : اي كالذى يقع فى حبالة الصائد » . والشواهد فى الواقع كثيرة عنده جدا ، معنى بها لدرجة كبيرة . فكان يستقصي الاستشهاد على جميع اضداده . ولم يترك منها الا الاضداد التى نقلها عن غيره بدون ان يكون مستشهدا عليها ، او فى المعاني المشهورة . وكان يصرح بانه لا يستشهد على المعنى المشهور ، لانه ليس فى حاجة الى ذلك . فكثيرا ما ترى هذه العبارة التالية عنده :

«لا يحتاج فيه الى شاهد لشهرته عند الناس ». او « لا يحتاج مع شهرته الى ذكر شواهد له » او « شهرته تغني عن اقامة الشواهد عليه » وما ماثلها.

يتضح من كل ذلك ان قول دائرة المعارف صحيح حين وصفت اضداد ابن الانباري بانها اهم كتب الاضداد . فهذا الكتاب قريب من كتاب ابي حاتم ، ولكنه يفوقه فى كثرة المواد وحسن العلاج ، وكثرة الشواهد وتنوعها ، ودقة النقد وكثرته ، وفى الاستطرادات التى تحوي كثيرا من الفوائد النحوية ، عن ائمة الكوفة .

---

(22) 17 .
(23) 152 .
(24) 57 .

ولا يعيب الكتاب غير بعض الاختلال ، الذى كان له اربعة مظاهـــر :

1 ــ الاضطراب : فالمؤلف ينظم صيغة فعـول لان قطربا نظمها ، ولا ينظم فعيل ، لان هذا لم ينظمها . وابو حاتم نظـم صيغتي افتعل وانفعل من الاجوف والمضاعف ، والمؤلف لا يفعل ذلك (262 ، 263 ) . ولا يبين انها قاعدة عامة فيما جاء على هذه الصيغة . ويذكر ابن الانباري كثيرا من الالوان على انها اضداد ، ولكنه يفرقها فى اماكن مختلفة ، وحقها الجمـع فى موضع واحد . ونتج عن هذا تكرار الكلام عن بعضها . وينطبق الكلام نفسه على الحروف والادوات التى عدها من الاضداد . ويتصل بذلك تفريقه اشباه الاضداد ، وكان واجبا عليه ان يفصل الاضداد ، عن اشباهها ، ويضع كلا منها على حدة .

2 ــ التكرار : مثل الاخضر ( 223 ، 245 ) وطلع ( 202 ، 257 ) وزءوم ( 230 ، 259 ) كـرر الكلام عنها فى الموضعين مع اتفاق السياق على وجه التقريب فى ( طالـع ) واختلافـه فـى ( الاخضر ) و ( زءوم ) . وكرر عن فزع ايضا (129،182) وان اختار فى المرة الاولى صيغة ( فزع ومفـزع ) وفى الثانية ( فزع ) .

3 ــ اضداد لا ينبه فى صدرها علـى ذلـك ، ويبتديء فى علاجها مباشرة ، مثل نـاء ( 94 ) حتى اضطرب الناشر المصـري الاول فيها ، واتى بها فى تضاعيف الكلام عن سابقتها ( 124 ) كانمـا ليسـت مادة جديدة .

— * —

## كتـاب ابي الطيـب اللغـوي

ظهرت اول محاولة لترتيب الاضداد على يد ابي الطيب عبد الواحد بن على اللغوي الحلبي المتوفـى عام 351 هـ . فقد اطلـع هذا اللغـوي على كتـب الاضـداد السابقة ، وجمعها امامه ، ثم نظر اليها نظرة ناقدة ، خرج منها بكتابه . واذن فقد كان يرمي ابو الطيب الى « احكام تصنيفه ، واحسان ترصيفه ، والزيادة على ما ذكر منه ، والغاء ما خلط من غيره فيه ، لتقوى منة القائليـن به ، ويضعـف قـول النافين له » كما يقول فى مقدمته . ويدلنا هذا على ان حركة التاليف فى الاضداد نضجـت ، ووصلـت الى مرتبة التفلسف والنقد ، بدلا من الاقتصار على الجمع .

وتبين هذه النظرة المدققة الناقدة فى منهـج المؤلف ، اذ قسم كتابه الى قسمين : الاول للاضداد المرضية عنده ، والثاني للاضداد التى ادخلها السابقون وليست من الاضداد فى حقيقتها . قال فى مقدمته : « وترى من سبقنا الى هذا الكتـاب قد ادخـل فيه ما ليس منه ، مما نحن ذاكرو صدر منه فى آخره بعد الفراغ من المقصد فيه » .

اما الاضداد المرضية ، او القسـم الاول مـن الكتاب ــ وهو الاكبر ــ فرتبه فصولا بحسب حروف المعجم . ووضع فى كل فصـل الالفـاظ المبـدوءة بالحرف المعقود له الفصل معتبرا الحرف الاصلـي فيها . قال فى المقدمة : « وقد راينا ان نبوبه على حروف المعجم ، اذ كانت همـة اهل زماننـا مقصورة عليه ، وقلوبهم مائلة اليه ، وخير ما تحرى ما نفع . وافضل ما انتدب له ما شفى ونجع » . ولكن ابـا الطيب اكتفى بترتيب الفصول ، ولم يحاول ترتيب الالفاظ نفسها فى داخلها .

والقسم الثاني من الكتاب ، الخاص بما ادخله السابقون من اضداد ليست منها فى الحقيقة ورتبه ابوابا . كل باب منها خاص بنوع من هذه الاضداد . وبلغ عددها اربعـة ابواب ، أولها لما استـوى فيـه الفاعل والمفعول من صيغة مفتعـل ومنفعـل مـن الاجوف ، وثانيها لما استوى فيه الفاعل والمفعـول من المدغم العين فى اللام ، وثالثها للمجازي ، ورابعها للمقلوب . والبابان الاولان مرتبان على الحرف الاول ايضا ، اما الاخيران فغير مرتبين ..

وحين يلقي المرء نظرة على هذا الكتـاب يجـده مفتتحا بمقدمة قصيرة ، تستهل بعد الحمد والصلاة بما تحراه المؤلف فى كتابه من احكـام التصنيـف واحسان الترصيف ... ثم تعريف الاضداد ويختمها بمنهجه والدعاء .

وتبدأ الاضداد بعنوان « الالف » الذى يشير الى فصل الالف بالطبع .

ولم يسم المؤلف هذه المجموعـات « فصـولا » ولكني وهبتهاهذا الاسم للتيسير .

ويظهر منذ الضد الاول تحري ابي الطيب الجمع والاستقصاء ، اذ يقتبس فيه من جميـع السابقيـن

عليه . قال : « قال ابو زيد : يقال : امر أمم : اذا كان عظيما ، وامر امـم : اذا كان صغيـرا . وقـال الاصمعي : امر أمم : اي قصد . وقال ابو عبيدة : الامم : القريب . وقال عمرو بن قميئة فى الصغير :

يا ليف نفسي على الشباب ولم
افقـد بـه اذ فقدتـه اممـا

وقال الاعشى :

لئن قتلتم عميدا لم يكـن اممـا
لنقتلن مثلـه منـكم فتمتثـل

قالوا : معناه لم يكن صغيرا حقيرا . وقالوا : بل لم يكن قصدا . وانشد قطرب فى معنى القصد :

اتانـي عن بنـي الاحـرا
ر قـول لـم يكـن اممـا
ارادوا نحـت اثلتنـا
وكنـا نمنـع الخطمـا

وانشد ابو عبيدة فى معنى القريب :

يا ليت شعري عنك والامـر امـم
ما فعل اليوم اويـس فـى الغنـم

قال ابو حاتم : اظنه والامر قصد ، وانشد فى معنى القريب :

« قومي اياد لو انهـم امـم »

اي لو انهم قريب . وقال الآخر :

كوفيـة نـازح محلتهـا
لا امم دارها ولا صقـب

ويروى : « لا سقب » بالسين ايضا : وهو القريب : ولذلك قالوا : دار فلانة مسقبة بدارنا : اي قريبة منها . وفى حديث الشفعة : « الجار اولى ـ او احق ـ بسقبه » : اي بما دنا منه وقرب من داره » . ذكر ابا زيد ، والاصمعي ، وابا عبيدة ، وقطربا ، وابا حاتم .

ونستخلص من دراسة اضداد ابي الطيب الظواهر التالية :

الانتظام : فقد بذلت الاضداد عنده نضجها فى الدراسة ، وغايتها فى الانتظام الداخلي . فالمعاني تقدم فى مفتتح المادة ، ثم ترد الشواهد على المعاني . ثم تعالج المادة كلها .

وتكثر الشواهد وتتنوع عنده بصورة لا تخطئها عين . فيعتمد على الشعر كما راينا فى المادة السابقة . ويعتمد على القرآن كما نرى فى قوله (25): « ومن الاضداد بطانة الثوب . يكون بمعنى البطانة ، وبمعنى الظهارة . وقال الحسن فى قول الله تبارك وتعالى : « بطائنها من استبرق » قال : اراد ظواهرها . قال قوم : لان كل واحد من الظهارة والبطانة يكون وجها . تقول العرب : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء ، للذى نرى منها . وقال الزبير فى قتلة عثمان رضي الله عنه : « ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب » يعني هربوا فى البلاد. وقال آخرون فى هذه الآية : انما اراد الله تعالى ان بطائن هذه الفرش من استبرق ، وهو الغليظ الفاخر من الديباج ، فالظهائر اشرف واعلى . والله اعلم بكتابه » .

ويعتمد على الاحاديث ، مثل قوله فى مادة باع (26) : « وروى ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ، عن ابيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من باع عبدا وله مال ، فماله الذى باعه الا ان يشترط المبتاع » اي المشتري. فالمبتاع يكون بمعنى البائع ، والمبتاع يكون بمعنى المشترى ، والمبتاع يكون بمعنى المبيع ، والمبتاع يكون بمعنى الشيء المشترى. وفى حديث رواه ابن سيرين ، عن شريح ، عن ابن مسعود قال : اذا اختلف البيعان ـ يعني البيع والمشتري ـ والبيع قائم بعينه ، فالقول ما قال البائع ، او يترادان البيع » . يعني بالبيع الشيء المبيع . وفى حديث آخر : « البائعان بالخيار » يريد البائع والمشتري .. وفى حديث آخر رواه ابن

(25) 67 . وانظر فهارس الكتاب .
(26) 47 . وانظر الفهارس .

مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا اختلف المتبايعان استحلف البائع ، ثم كان المبتاع بالخيار » .

ويعتمد على اقوال الصحابة، كما راينا فى ظهر، وكما نرى فى قوله (27) : « يروى عن حذيفة انه قال حين حضرته الوفاة : بيعوا لي كفنا ، اي اشتروه لي » .

ويعتمد على اقوال الاعراب والاقوال المتبادلة بين الناس فى حياتهم اليومية ، كما راينا فى ظهر ، ونرى فى قوله ايضا (28) : « ذكر اعرابي جريرا فقال : كان سفسيرا اي حاذقا بالشعر » .

ويعتمد على الامثال ايضا (29) : « وبشرة الانسان : ظاهر بدنه عندهم جميعا ، والجمع بشرات وبشر ... ابو زيد : تقول العرب فى مثل: « اراك بشر ما احار مشفر » وبعضهم يقول : اولج مشفر . قال : سمعتها من رجل من بني اسد يقول : ما اكلت استبان على بشرتك وفى لونك » .

وكثيرا ما كان يورد تعليقات على الشواهد توضحها ، كما نرى فى قوله : « وقول الشاعر :

امك بيضاء من قضاعة فى الـ
ـبيت الذى يستظل فى طنبه

اراد نقية من المعائب ، ولم يرد ان يصف لونها. وكذلك قوله :

امك بيضاء من قضاعة قد
تمت لها الوالدات والنضد

النضد ها هنا : الاعمام والاخوال .. » .

ونسب كثيرا من الشواهد الى من انشدها كما راينا فى امم : ونرى فى قوله : « الامين : المؤتمن، والامين المؤتمن، بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول . وانشد ابو حاتم للنابغة فى معنى المفعول به .

وكنت امينه لو لم تخنه
ولكن لا امانة لليمانى »

واغترف ابو الطيب من اضداد سابقيه ، وما اتوا به فى سبيل تفسيرها وتعليلها ونقدها والاستشهاد عليها . وكان حريصا كل الحرص على نسبة كل قول الى قائله ، حتى فى الاحوال التي لم يلتزم فيها عبارة واحد منهم ، وجمع بين عباراتهم ، اشار الى ذلك . فكان اكثر من جمع بين عبارته قطرب وابو حاتم . وجمع ايضا بين التوزي ، وقطرب وابي عمرو ، وقطرب وابي عبيدة . وجمع احيانا بين اقوال ثلاثة منهم معا، مثل قطرب وابي حاتم والتوزي، وابي عبيدة وابي زيد والاصمعي .

وكانت الثمرة الطبيعية لهذا ان كثرت الاضداد عنده كثرة هائلة تعادل كثرتها عند ابن الانباري ، وان تمثلت فى كتابه جميع الظواهر التى وجدت فى كتبهم ، فى الاضداد والشواهد والتفسير . بل ان ما جاءوا به ولم يرض عنه لم يخل كتابه منه ، وجمعه فى آخر الكتاب .

ولكن ذلك لم يلغ شخصية ابي الطيب . فما اكثر تعليقاته الشخصية التى يورد بعضها عن لغويين آخرين ، ويأتي ببعضها من معارفه العامة ، ويقصد فيها الى زيادة التوضيح ، والاعتراض ، والنقد ، والترجيح ، وما الى ذلك من امور .

والحق انه يعادل كتاب ابن الانباري قدرا واهمية . ويفوقه فى اتجاهه الادبي ، وكثرة شواهده وتنوعها ، وكثرة الاحاديث عنده ، وفوائده التى اضافها ، واصراره على نسبة كل قول الى صاحبه ، وما ادخله على الاضداد من ترتيب . اما ابن الانباري فيفوقه فى القرآنيات ، والعلل اللغوية والصرفية ، والعبارات المؤلفة .

— * —

## كتاب ابن الدهان

اعلن ابن الدهان فى مقدمة اضداده انه نظر فى كتب السابقين عليه ، فوجد فيها اختلالا : اذ يذكرون ما يجب عليهم حذفه ، ويتركون ما يجب

(27) 45 . وانظر الفهارس .
(28) 45 . وانظر الفهارس .
(29) 74 . وانظر الفهارس .

عليهم ذكره ، ووجدها مشحونة بالشواهد . فاستهدف ان يخرج مختصرا حاويا للاضداد مجردة عن كل شيء . فهدفه الجمع والاختصار . ثم رد على من انكر الاضداد . واتبع ابن الدهان ما فعله ابو الطيب في ترتيب اضداده ، فلم يراع فيها غير الحرف الاصلي الاول واهمل بقية الحروف .

ولا يزيد الكتاب عن قائمة توردُ اللفظ الضد يليه معنياه . وعلق من وقت لآخر على بعض الاضداد بعبارة « وفيه نظر » دلالة على شكه فيه . وطبيعي ان الكتاب حوى الانواع المتعددة من الاضداد ، بسبب اعتماد المؤلف على الكتب السابقة ، التي اشار منها الى كتب الاصمعي والفراء وقطرب وابن السكيت وثعلب والسجستاني وابن الانباري .

وامثل لنهج الكتاب بما يلي :

« الأمين : المؤتمن والمؤتمن .

المأتم : النساء يجتمعن في الحزن ، وفي الفرح ، وفيه نظر .

اذ : للماضي والمستقبل ، وفيه نظر .

اذا : للماضي والمستقبل ، وفيه نظر .

الأمم والأمم : الحقير والعظيم .

الآشرة : الآشرة والماشورة » .

— * —

## كتاب الصغاني

في اوائل القرن السابع ، اخرج الصغاني كتابا في الاضداد ، وصل الينا بتحقيق الاستاذ الدكتور هفنر Dr August Haffner ويفتتح الكتاب بالعبارة التي يبدو ان الصغاني كان يفتتح بها كتبه جميعا مع البسملة والحمد ، والتي تدل على اعتكافه في المسجد الحرام ..

وصرح المؤلف في مقدمته بانه قرأ جميع كتب الاضداد ، وذكر ما فيها ، مع تحري الاختصار والترتيب على حروف الالفباء ..

ولم اعثر قبل الصغاني على كتاب في الاضداد مرتب على الحروف في جميع الفاظه ، فلعله اول من فعل ذلك . وكان ينظر في ترتيبه هذا الى اوائل الحروف ، فحروفها الثانية ، فالثالثة فالرابعة اي الترتيب الحديث المعروف لنا ، مع تقديم الواو على الهاء . وكان لا يعتمد في ترتيب الالفاظ الا على حروفها الاصلية . اما الزائدة فلا اعتبار لها عنده . ويبدو من عباراته الاخيرة انه تحرى الجمع وتدوين ما وضعه السابقون في كتبهم بدون تمحيص او نقد ، فهو لا يقبل المرضي وحده ، ويحذف المشكوك فيه ، بل يقبلهما معا . وقد اشار الى ذلك مرة ثانية في خاتمة كتابه القصيرة التي قال فيها : « آخر كتاب الاضداد ، ولله الحمد والمنة . وفيه كلمات ليست هي عندي من الاضداد ، ولكني قفوت فيه آثار من سبقني الى جمعها مثل ابن الانباري وغيره ، حذار ان يقال : اهمل شيئا مما اثبتوه ، فليمهد العذر العاثر عليها ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه كثيرا » .

وحين ندرس الكتاب لنرى مقدار وفائه بوعوده نراه في الخطوة الاولى جمع 337 ضدا ، ولكنه لم يذكر كل ما في اضداد قطرب وابن السكيت وابي حاتم وابن الانباري . فقد حذف من الاولى حوالي 67 ضدا ، ومن الثانية حوالي 10 اضداد ، ومن الثالثة حوالي 55 ومن الرابعة حوالي 40 ضدا . واتى في مقابلها بقريب من 75 ضدا ، ليست في هذه الكتب الثلاثة . ولا يقوم هذا الحذف على اساس الشك والنقد ، اذ لم يحاول المؤلف ذلك بتصريحه . اضف الى ذلك ان كثيرا مما حذفه رواه غير واحد من مؤلفي الاضداد ( 20 ، 225 ، 217 ، 77 ، 226 ، 193 ، 205 ، 60 ، 219 ، 127 ، 210، 185، 85 214، 218 ، 213 ، 24 ) . ولكن تجب الاشارة الى ان كثيرا مما حذفه خاطيء ( 231 ، 180 ، 166 ، 109 ، 255 ، 286 ) او مشكوك فيه ( 259 ، 246 ، 272 ، 273 ، 244 ، 270 ، 266 ، 118 ، 275 ، 252 ، 265 ، 243 ، 242 ، 257 ، 271 ) او انفرد به قائلوه ( 16 ، 100 ، 105 ، 96 ، 17 ) واكثر ما حذفه من اضداد ابن الانباري ، او ينطوي تحت صيغ فعول ( 60 ، 158 ، 159 ، 161 ، 162 ، 163 ، 164 ، 165 ) او فعيل 203 ، 204 او افتعل (175) .

اما المنهج الذي سار عليه فغاية في البساطة : ايراد اللفظ ومعنييه المتضادين . ولا عناية بما بعد ذلك . فلا ذكر للغويين الذين يأخذ عنهم الا قليلا (490، 688، 706) ولا ذكر لشواهد، ولا لمشتقات ولا لمعان اخرى للاضداد ، ولا لفوائد وزيادات واحكام وقواعد . فالكتاب يمكن تسميته « متن الاضداد » . وهاك بعض الامثلة :

« الابض : السكون والحركة .

الأبـــل : الرطب واليبـــس .

المأتـم : النساء المجتمعات على الحزن وعلى الفـرح .

الارة : الحفرة التى تحفر للنار ، والنار نفسها ايضـا .

الأزر : القوة والضعف .

أسـد : اذا جزع وجبن ، واذا جسر كالأسد .

افـد : اذا اسرع واذا ابطـأ .. الى آخـر الكتـاب » .

ولكننا نأخذ عليه اضطراب ترتيب بعض الالفاظ عنده . فقد قدم « أون » على « أور » و « تصدق » على « صامت » و « قانـت ـ قنيـص ـ قانـع قنوع » على « قموء » والعكس اصح . كما قدم « ناء » فى أول حروف الواو اذ ذكرها مع تاء المتكلم « نؤت » والأصح وضعها فى النون مع الواو .

— * —

## كتـاب عبد اللـه بـن محمـد

تقتني دار الكتب المصرية رسالة صغيرة جدا فى الاضداد عنوانها : « ذكر بعـض الاضـداد التى ذكرت فى القاموس « جمع من يسمى « السيد عبد الله بن محمد ...» . تحت رقم 241 مجاميع وهي ورقات ، ناقصة من آخرهـا . اذ وقفت فى اثنـاء مادة « القتين » .

وواضح من عنوانهـا ان المؤلف جمع ما فيهـا من اضداد من القاموس المحيط للفيروزابادي وحده وقد سار المؤلف على ترتيب القاموس ، اذ يبدو انه فى اثناء اطلاعه كان يدون كل لفظ من الاضداد يعثر عليه . ولم يختر المؤلف الاضداد التى نبـــه عليها الفيروزابادي وحدها ، بل اختار ايضا الالفاظ التى روى لها معنيين متضادين دون تنبيه على انها مـن الاضداد . ولم يغير المؤلف فى ترتيب الالفاظ التى اختارها من القاموس ، فبقيت على ترتيبها فيه ، أي على الحرف الاصلي الاخير اولا ، فالحرف الاصلي الاول ثانيا ، فحروف الوسط الاصول مرتبة ..

وسار المؤلف ايضا على نهج القاموس فى العناية بالتفسير وحده ، وحذف الشواهـد . فكان يـورد اللفظ ثم معنييـه المتضاديـن . وكـان فى غالـب الاحيان يحافظ على نص القاموس ايضا . وهذه بعض الامثلة من باب الهمزة منه ، تؤكد ما سبق من اقوال: « ثأثأ الابل : عطشها وارواها . وثأثـأت : عطشـت وريت . جفأ الباب : اغلقه وفتحه كأجفاه . خجيء : استحيا وتكلم بالفحش . وأدأ الشيء : حركه وسكنه. داراته : دافعته ولاينته . رقأ بينهم : افسد واصلح. القرء : الحيض والطهر . ناء بالحمل : نهض مثقلا ، واثقل فسقط . وراء : خلف وقدام » .

— * —

## كتـاب محمـد المدنـي

تقتني المكتبة السليمانيـة بالاستانـة رسالـة اخرى فى الاضداد للشيخ محمـد المدنـي ، تماثل الرسالة السابقة او تكاد ، تحت رقم 1041 . وليس للرسالة مقدمة تبين هدفها ولا منهجها . ولكن لها خاتمة اخذ جزءا منها من المزهـر للسيوطـي ، ومن اضداد ابن الانباري . وصرح فيها : « وقد تتبعت القاموس وغيره من كتب اللغة ، واستخرجـت مـا صادفته ، ولم ادع الاحاطة » .

وعند مقارنة مادة هذه الرسالة بمادة الرسالـة السابقة لا نجد بينهما فرقـا يذكـر ، لاعتمادهمـا الرئيسي علـى القامـوس المحيـط فى الاضـداد ، وترتيبها وتفسيرها . ومثال ذلك قوله :

ثأثأ الابل : ارواها وعطشها ضد . وثأثأت الابل عطشت ورويت ضد . جفأ الباب : اغلقـه كأجفـاه وفتحه ضد . داراته : داريته ودافعته ولاينته ضد . رقأ بينهم رقأ : افسد واصلح ضد . القرء ، وبضم : الحيض والطهر ضد » .

— * —

## دورق الأنـداد للأبيـاري وشروحـه

وفى أوائل العصر الحديث شارك الشعـر فى حركة الاضداد ، فألفت فيهـا الرسائـل المنظومـة ووصل الينا من هذه الحركة رسالتـان . اولاهمـا المسماة « دورق الانداد فى نظم اسماء الاضـداد »

للسيد عبد الهادي نجا الابياري المتوفى عام 1305 هـ. وقد الفه قريبا من عام 1297 ، اذ تمت النسخة الثانية منه على يد الناظم فى ضحوة يوم الثلاثاء تاسع شوال من ذلك العام ، كما تصرح نسخة دار الكتب المصرية ، التى تحت رقم 844 لغة .

والسبب الذي دفع الابياري الى تأليف نظمه اعانة الادباء الذين يرمون الى التأنق بالجناس والتورية والمحسنات . واما المراجع التى اعتمد عليها فالقاموس المحيط للفيروزابادي وشراحه ، قال الناظم فى مقدمة قصيدته :

وقد تيسر لي فى جمعها جمل
تجمل المجتني من روضها كلما

كل الذى ذكر القاموس جئت به
الا الذى بصري قد زاغ منه وما

وزدت اشياء من شراحه وسوا
ها ، هكذا منه، لكن بالذي فهما

حتى ظننت بأن لم يبق قط من ال
أضداد شيء، ولكن يا اخي ربما

وشرح لنا الناظم منهجه فى المقدمة ايضا ، فعرفنا بانه لم يلتزم الالفاظ الواضح تضاد معانيها وحدها ، بل ذكر ما اورده غيره ولو كان فيه تجوز وتوسع ، وان نقده فى احيان اخرى ، قال :

وربما كان فى بعض الذى ذكروا
تسامح بعموم او بما لزما

فاقتفي اثرهم طورا ، وآونة
ابدي الذى يتراءى فيه للفهما

ولم يلتزم ايراد المعنيين المتضادين فى كل لفظ من الاضداد ، بل حذف احيانا المعاني المعروفة المشهورة واكتفى بايراد المعاني غير المعروفة ، قال :

طورا اجيء بكل المعنيين وطو
را بالذى كان مجهولا ومنبهما

فان تعددت الاضداد جئت بما
يغني عن الضد من كل ، لينفهما

ويريد بالبيت الثاني ـ كما نص شارحه ـ : « ان كثرت الاضداد بأن كان اللفظ مشتركا بين اربعة معان مثلا ، كل معنيين منها متضادان ، جئت من الأربعة مثلا ، بما يغنى عن الضد من كل منها وذلك اني اذكر معنيين فقط : كل منهما محذوف الضد لينفهم المحذوف بالمذكور » .
وسار فى ضبط الفاظه على هدى القاموس المحيط ، قال :

ينبيك قاموسها بالاصطلاح لها
اذ منه مرجانها واللؤلؤ انتظما

ما كان مهملا اومفتوحا اوله
اطلقته وضبطت الغير معتصما

والوزن فيما له قد حركوا اوله
قد سكنوا مؤذن بالضبط للفهما

فان ضرورة شعر قد دعت لسوى
هذا ، اشرت اليه خوف ان تهما

واتبع ترتيب الفيروزابادي وتقسيمه لقاموسه، فالكتاب مقسم الى ابواب بحسب الحرف الاخير للكلمات التي فيها . وترتب الكلمات فى داخل هذه الابواب بحسب حروفها الاولى فالوسطى . ولكن الشعر ارغمه احيانا على الاخلال بهذا الترتيب فى داخل الابواب لا بين الابواب . اعني الاخلال فى ترتيب الحروف الاولى ، او الحروف الوسطى ، اما الحروف الاخيرة فلا .

وهاك قدرا مما قاله الناظم فى « باب الهمزة » لتبرز معالم منهجه :

بغرة الشهر فسر **البراء** كذا
بالانس **فسر بساء** واكسرن لهما

ثم البلاء لمنحة أتى ولمحـ
ـنة ، كما جاء فى القرآن منفهما

**ثائات** ابلى : اي ارويتها ، وكذا
**ثائات** هي : اي اضحت ذوات ظما

والاجتداء بسؤال فسروا وعطا
كذا **الجداء** ، قاله القالي عن العلما

واجفـيء الباب : اغلقـه ، **وداداه**
معناه حرك ، والتسكين قد فهمـا

**دارات** خصمي ـ مهموزا، كذاك بيا ـ
دافعتـه ، وكـذا لاينتـه كرمـا

وقام المؤلف نفـه بشرح قصيدته فى كتاب سماه « الرونق على الـدورق » اكثـر فيه واطـال واستطرد . ولكنه ـ فيما يبدو ـ لم يتمه ؛ وانمـا اعطانا وصفه احمد بن احمد بن اسماعيل الحلواني ؛ فى مقدمة شرحه للدورق . قال : « وكان ـ حفظه الله ـ قد ابتدا شرحه الموسوم بالرونق على الدورق، لكنه طال وسار بل سال ، فى رياض الادب الفوال ، عن يمين وشمال . فانه التزم فيه تحـف المناسبات الظريفة ، طرق الاستطرادات الشريفـة ؛ وحقـق ودقق ، ونمق وانق ؛ وحرر وحبر ، ونضد ونضر ، ونثر الدر والجوهر ، فاكثر ... فقد رايت منه اربعة كراريس ، يبذل الاديب فى مثلها النفس والنفيس . ولكنه زهر فى الاكمام ، وطفل لم يبلغ حد الفطام..»

ورجا المؤلف من الحلوانـي ان يؤلـف شرحـا مختصرا على قصيدته . فحقق الرجاء بكتابه الذى تحتفظ دار الكتب المصرية بمسودته تحت رقم 844 لغة ، بعنوان « الكاس المروق على الدورق » ، وقد فرغ منها « يوم السبت الخامس والعشرين من صفر سنة اثنتين وثلاث مئة والف من الهجرة الشريفة ».

وحدد الحلواني خطوات منهجـه بقولـه فى مقدمته : « فشرعـت فى الشـرح ومـا اطيلـه ، فالمقصود الدورق وهو سبيله . الا اني ان ظفـرت بشيء من الاضداد ، فى باب من الابـواب ، فاني اذكره تتميما للمراد ، فى خاتمة ذلك البـاب . ولا التزم فى اخذه من نحو القاموس او تاجه : ان تكون نصا فى الضدية ، سيراجع الدورق فى منهاجه من اعتبار العبارة الاشارية . ولا التزم ايضا الاستقصا ، فاني ان رمته استعصى ، كيـف واللغـة بعيـدة الساحل ، مديدة المراحل ؟ ... ولكن ما جاء عفـوا اخذته صفوا . ثم لا تراني معاذ الله اعمد الى مقام مشهور ، مجته اسماع الجمهور ، فاسود به وجـه السطور ، فذلك مما ينفر الطباع ، ويكدر الاسماع ، ويكون عارا لا يمحوه اعتذار ولا استشفاع ، اللهم الا ان كان من الحقوق الواجبة ، او سيق لمناسبـة ، او نكتة مناسبة ، فالشيء بالشيء ، والشمس بالفيء ، فهذا لا اتحاماه ، بل احمي حماه ، واتقي اذاه ، الى ما ستراه ، ان شاء الله ، من الالماع، بمـا يسحـر الاسماع، من تحقيقات شريفة ، وتدقيقات ظريفة .. تراها مرة شرعية ، وكرة ادبية ، وطورا يمانية ، وحينا معدية ... يرتاح اليها الفقيـه ومن حـذا حذوه ، واللغوي ومن نحا نحوه ..» .

وداب الرجل فى هذا الشرح على معالجة نص الناظم نحويا وعروضيا وتفسيره تفسيرا كاملا ، وتناول كل ما عن له من مشاكل فى النص . فهو يقوم على طريقة المتون والشروح والحواشي التى كانت تسود العهود الاخيرة من تاريخنا . وصدر كل باب بكلمة عن عنوانه .

## منبـه الـرقـاد

تملك دار الكتب رسالة اخرى فى نظم الاضداد، تحت رقم 329 لغة ، باسم « منبه الرقاد فى ذكـر جملة من الاضداد » لا يعـرف مؤلفهـا . وقد تـم نسخها يوم الثلاثاء الموافق لآخر يوم من شهر رمضان سنة اربع وثلاث مئة والف ، كما فى آخرها .

وتختلف هذه القصيدة عن السابقـة فى عدة مظاهر ، اولها ان هذه من المزدوج الـذى يقفـي شطراه وحدهما ، وتختلف القافية فى الابيات بعـد ذلك . اما السابقـة فكانت من بحـر البسيـط ، والتزمت فى رويها الميم المشبعة الفتحة . واتفـق الاثنان فى الابتداء بمقدمـة شرح كل منهمـا فيهـا منهجه . ولكن المنهجين لا يتفقان تماما . فقد صرح ناظم هذه القصيدة بعد الحمد والصلاة بأن قصـده بها علمي هو تنبيه الغافلين والجاهلين ـ ومـن ثـم اسمها ـ على حين كان مقصد الابياري ادبيا علميـا كما راينا . يقول ناظمنا :

وبعد فالقصد بهـذا النظـم
تنبيـه كـل غافـل وامـي
سميتـه منبـه الرقـاد
فى ذكر جملة من الاضـداد

وأراد ناظمنا ـ كما اراد الابيـاري ـ الجمـع ورجع فى سبيله الى القاموس والصحاح وكتب ابن ابن جني على حين رجـع الابيـاري الى القامـوس وشروحه . يقول الناظم فى المقدمة :

احسب ما وجدت منها مع قصور
وغيبتي عن فنها مع الحضور

واحسب هنابمعنى اعد ، ويقول فى الخاتمة :

معتمدا ضبطي على القاموس
لانني فى الفن كالبابوس (30)
وفى الصحاح جاعلا مجني
وربما اخذت فى ابن جني

وجعل من خطته ذكرا للمشتقات المرتبطة بالاضداد وخاصة المصادر والصفات ، على عكس الابياري يقول :

وربما اومي للاشتقاق
والقيد ان كان وللاطلاق
وللمصادر فاضبط الكلم
والوصف مع بعض اللغات المنبهم

وخصص الجزء الاخير من قصيدته للالفاظ المتماثلة ـ اي الكلمات المتماثلة المعنى مع تغير بعض حروفها بالابدال ـ والمقلوبة ، يقول :

وللمماثلين والمقلوب
عونك يا مقلب القلوب

ولجأ فى تقسيم قصيدته الى التقسيم الذى ارتضاه صاحب القاموس ، والابياري . فالقصيدة مقسمة الى ابواب بحسب الحرف الاخير من الاضداد التى يحتوي عليها كل باب ، والالفاظ ترتب فى داخل الابواب بحسب حروفها الاولى ، واواسطها ولكن الترتيب كثيرا ما افلت منه فى داخل الابواب.

وختم القصيدة بخاتمة اشارت الى انتهاء ما يريد نظمه ، واشياء من منهجه ، والدعاء الى الله ان يغفر ذنوبه ، والصلاة على الرسول وآله وصحبه والتابعين .

وهذا باب الهمزة منه ، يمثل تناوله ونظمه :

**ثانأ** ذا ابله : ارواها
كذا اذا اغرى بها صداها

**وثاثات** هي : اذا ما رويت
يوم ورودها ، كذا ان عطشت

**وجفا** الباب : اذا ما اغلقه
كذا اذا فتحه : فحققه

**دارات ذا** : دفعته لشره
كذا اذا لاينته لعسره

**رقا** : افسد واصلح ، خذ
والمصدر الرقؤ، والرقا انبذ

**والقرء**، بالفتح وبالضم اتى
يكون للحيض وطهر ثبتا

**وناء** زيد : خف او قد ثقلا
فعجز الحال به بين الملا

ثم **الورا** بهمز لا اعتلال
يكون خلف وامام تالي

عكس الذى توهم الامام
الجوهري العالم الهمام

ويتضح من هذه الابيات ان الناظم خالف الابياري فى عدة مظاهر : اهمها التزامه ذكر المعنيين المتضادين فى كل نفظ ، عدم التزام قافية واحدة فى جميع الابيات ، ثالثها الاشارة الى المشتقات مثل مصدر الرقؤ ، رابعها الضبط واللغات فى القرء ، خامسها نقد الجوهري فى « وراء » اذ جعلها مع المعتل واصلها الهمز ، وقد اخذ هذا النقد من الفيروزابادي ، سادسها انه يترك بعض الاضداد التى ذكرها الابياري، اي عناية الاخير باستقصاء الاضداد اشد من عناية صاحب « المنبه » . ومن اهم اوجه الخلاف ايضا شعور المرء ـ بان قصيدة صاحب « المنبه » اشد سلاسة ، واعظم وضوحا ، واقل تكلفا من قصيدة الابياري .

وهناك اوجه خلاف اخرى لم تظهر فى الابيات السابقة ولكنها ظاهرة فى القصيدة كلها ، اهمها اهتمام صاحب « المنبه » بذكر المعاني التى لا تدخل فى المعنيين المتضادين للاضداد مثل قوله :

---

(30) ولد الناقة ، والصبي الرضيع .

الأزر للضعف والقوة قل

وللاحاطة وللظهر نقل

فمعاني الشطر الثاني لا تدخل في الاضداد ، وقوله :

وبتر الرجل : اعطى ومنع

كذا اذا على الضحى حين طلع

فصلاة الضحى ليست من المعنيين المتضادين ، وكذلك قوله :

والشسع ـ بالكسر ـ : قبال النعل

ولقليل المال ثم الجدل

فشسع النعل ليس من الاضداد . وامثال ذلك كثيرة ، ولم يعن الابياري بها .

ويعيب هذه القصيدة امران : قلة الاضداد فيها عما في الدورق ، وكثرة الاضطراب في الترتيب ، كما يظهر في باب الباء ، والحاء والدال ، والراء ، والسين ، والضاد ، والعين وغيرها .

## ( الفصل الرابع )

## فصول عن الأضداد

لم يقصر لغويو العرب جهودهم على تأليف كتب مستقلة للاضداد ، بل شارك بعضهم في هذه الحركة ، بتخصيص ابواب او فصول للاضداد من كتبهم الجامعة . ومن الطبيعي اننا لا نستطيع ان نغفل او نحط من هذه الجهود ، وان كانت بحكم وضعها اقل شأنا من الكتب المستقلة .

وقد وصلت الينا خمس مجموعات تحتوي على ابواب مخصصة للاضداد ، وهي بترتيب ظهورها : الغريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى بين عامي 223 ـ 230 ـ ، وادب الكاتب لابن قتيبة 270 هـ ، وسر العربية لعبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى عام 429 ، والمخصص لابن سيده المتوفى عام 458 ، والمزهر للسيوطي المتوفى عام 911 هـ .

### الغريب المصنف

اما ابو عبيد فاعتمد في « باب الاضداد » من غريبه على اساتيذه « ابي زيد ، وابي عبيدة ، والاصمعي ، وابي محمد اليزيدي ، والكسائي » (31) والثلاثة الاول خاصة. واورد في هذا الباب 41 ضدا، كلها موجود في الكتب المستقلة بالاضداد . ولما كان اعتماده على اساتذته ، كان يروي عنهم مباشرة ، فصدر الباب بعبارة : « سمعت أبا زيد يقول » . وانواع الاضداد عنده قليلة ، تتألف من الاضداد الحقيقية ، واضداد التفؤل ، واللفات ، والقلب ، وصيغة أفعل .

وسار المؤلف على خطة ايراد اللفظ ، ثم معنييه، ثم شواهده ان وجدت ، ونسبة كل منها الى قائله . وهو في اغلب المواد قريب من اضداد ابن السكيت متفق معها . قال مثلا : « قال ابو زيد : طلعت على القوم اطلع طلوعا : اذا غبت عنهم حتى لا يروك ، وطلعت عليهم : اذا اقبلت اليهم حتى يروك . وقال : لمقت الشيء المقه لمقا : اذا كتبته في لغة بني عقيل ، وسائر قيس يقولون : لمقته : محوته » . وقال ابن السكيت (40) : قال ابو زيد : يقال : طلعت على القوم اطلع طلوعا : اذا غبت عنهم حتى لا يروك، وطلعت عليهم : اذا اقبلت اليهم حتى يروك . ويقال : لمقت الشيء المقه لمقا : اذا كتبته في لغة عقيل ، وسائر العرب يقولون : لمقته : محوته » .

ولكنه كان يميل الى الاختصار ، فاختصر عبارة ابن السكيت ، كما نرى في قوله : « فرع الرجل في الجبل : صعد ، وفرع : انحدر ، وقال معن بن اوس :

فساروا ، فاما جل حي ففرعوا

جميعا ، واما حي دعد فصعدوا

ويروى : فافرعوا ، وافرع في الحالين جميعا». وقال ابن السكيت (41) : « فرع الرجل : اصعد وفرع : انحدر ، قال معن بن اوس :

فساروا : فاما جل حيي ففرعوا

جميعا ، واما حي دعد فصعدا

---

(31) البغية 376 .

(40) 323 ـ 4

(41) 313 .

ويروى : فاصعدا . ويروى : فافرعوا . وقد افرع الرجل : اذا انحدر من الجبل ، وافرع : اذا صعد ، قال الشماخ :

فان كرهت هجائي فاجتنب سخطي
لا يدركنك افراعي وتصعيدي

وقال رجل من العبلات من بني امية :

اني امرؤ من يمان حين تنسبني
وفي امية افراعي وتصعيدي

الرواية : وتصويبي » . فحذف ما اورده في « افرع » حتى التبس قوله بعض الشيء ، وحذف ما بعدها من شواهد . وكثيرا ما كان يحذفها اختصارا .

وبرغم هذا الاختصار ، كان يزيد احيانا على ما في اضداد ابن السكيت ، مثل قوله : « قال ابو زيد : السدفة في لغة بني تميم : الظلمة ، والسدفة، في لغة قيس : الضوء . وكذلك قال ابو محمد اليزيدي ، وانشد للعجاج :

« واقطع الليل اذا ما اسدفا »

اي اظلم . وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة مثل ما بين طلوع الفجر الى الاسفار» . ولم يرو ابن السكيت (42) ولا ابو حاتم (43) ولا ابن الانباري (44) العبارة الاخيرة .

ولم يمنعه الاختصار من شرح شواهده ، والالتفات الى ما فيها من رواية . وكان يتفق مع ابن السكيت في اكثر الشرح مع اختصاره . مثال ذلك في قوله : « قال الاصمعي : شعبت الشيء اصلحته، وشعبته : شققته . قال : والشعوب منه ، وهي المنية لانها تفرق . وانشدنا لعلي بن غدير الغنوي :

واذا رايت المرء يشعب امره
شعب العصا ويلح في العصيان

فاعمد لما تعلو فمالك بالذي
لا تستطيع من الامور يدان

قوله : يشعب امره : يعني يفرقه ويشتته . وقوله : لما تعلو ، يقول : تكلف من الامور ما تقهره وتطيقه » . وشرح ابن السكيت أوفى من ذلك ، اذ قال (45) : « قوله : يشعب امره : يفرقه . يقال : شعبت اهواؤهم: اي تفرقت. وقوله : لما تعلو : يعني تكلف من الامر ما تطيقه وتقهره ، ويقال : هو عال لذلك الامر : اي ضابط له قاهر » .

وتاتي مزايا هذا الباب من الاضداد من أنه يصحح بعض نقول ابن السكيت ، كما فعل في ( لمق ) اذ نسب معنى ( محا ) الى قيس . موافقا بذلك ابا حاتم ( 46 ) وابن الانباري (47) ، ومخالفا قول ابن السكيت (48) .

ويمتاز ايضا بانه ينسب كثيرا من الاضداد التي اهملها ابن السكيت وابو حاتم الى اصحابها الذين قالوها ، مثل افاد ، واودع والمشيح وصارخ وهاجد وصريم وبثر وظن ووراء وغيرها .

ومن الطبيعي ان نضع في مزاياه زياداته في تضاعيف الشرح ، والخطة التي اتبعها في علاج الاضداد ، وجعلته لا يعني الا بما اتصل بها ، ويحذف ما عدا ذلك ، ويقلل الشواهد ، حتى صار الباب في مرحلة متوسطة بين كتب ابن السكيت وابي حاتم وابن الانباري الخاصة بالشواهد والمعلومات ، وبين كتاب الصغاني الذي حذف الشواهد جميعها.

ولكننا نأخذ عليه تكرار مادة « وراء » وتبعا لها مادة « دون » مرتين : اولاهما في منتصف الباب عن ابي عبيدة ، وثانيتهما في آخره تقريبا عن غير ابي عبيدة . ولن نعتذر عنه باختلاف الراوي لانه كان يستطيع التنبيه الى ذلك في الموضع الاول ، ويستغني عن التكرار .. والمأخذ الثاني عليه ايراده بعض الاضداد التي نقدها المؤلفون ، مثل خندذ

---

(42) 43، 316 .
(43) 1144 .
(44) 645 .
(45) 277 .
(46) 1372 .
(47) 133 .
(48) 50، 324 .

واسر ، التى اوردهما ابو عبيدة ، ونقدهما ابو حاتم ، ونقل النقد ايضا ابن الانباري .

— * —

## ادب الكـــاتـــب

وافرد ابن قتيبة بابا صغيرا من ادب الكاتب ، « للمتضادين باسم واحد » (49) اورد فيه 27 ضدا. ونهج على ان يقدم اللفظ المراد ثم معنييه المتضادين. واكتفى بذلك كثيـرا ، وفى مـرات اخـرى اورد شاهدا من الشعر ، وكثيرا ما اكتفى بشطر واحد من الشاهد . ونسب فى احد الاضداد قولا لابي عبيدة، وآخر للفراء . واورد فى احد الاضداد ايضـا قـولا يبطل التضاد اخذه من ابي عبيد وان لم ينبـه الى ذلك ..

وامثل له بقوله : « الجون : الاسود ، وهو الابيض ، قال الشاعر :

يبـادر الجونـة ان تغيـبـا

يعني الشمـس .

والصريم الليل ، والصريم الصبح .

والسدفة الظلمة ، والسدفة الضوء ، وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر الى الاسفار .

والجلل الشـيء الكبيـر ، والجلـل الشـيء الصغير » .

## سـر العربيـة

وافرد الثعالبي فى كتابـه « سر العربيـة فى مجاري كلام العرب وسننها والاستشهـاد بالقـرآن على اكثرها » فصلا خاصا بالاضداد ، سماه « فصل فى تسمية المتضادين باسم واحد (50) » .

وهذا الفصل قصير جدا كبقية فصول الكتاب، يحتوي على ثمانية اضداد فحسب . نهج المؤلف فى معالجتها ، على ان يذكر الكلمة ، ثم معنييها . قال مثلا : « الجون للابيض والاسود ، والقروء للاطهـار والحيض ، والصريم لليل والصبح .. » واستشهد على ضدين فقط ، احدهما ببيت من الشعر ، والثاني بآية من القرآن : قال الخيلولة للشك واليقيـن ، قال ابو ذؤيب :

فبقيت بعدهم بعيش ناصـب
واخال اني لاحق مستتبـع

اي واتيقـن . والنـد المثـل والضـد وفـى القـرآن : ( وتجعلـون لله انـدادا ) علـى المعنيين » . وواضح من هذه الخطة ان المؤلف لا يريد الا ان يأتي ببعض الامثلة على الاضداد فى اللغة ، اذ هي فى رايه « من سنن العرب المشهـورة » كما قال فى أول فصل الاضداد . فالاضداد عنـده ليسـت مسألة او مشكلة علمية تبحث ، بل مسالـة فـرغ البحث منها ، فهو يشير اليها فقط، ويمثل لها ..

ونستطيع ان ندخل من كتابه ثلاثـة فصـول اخرى ، لان مؤلفي العرب القدامى اعتبروا امثالهـا من الاضداد ، وهي « فصل فى المفعول يأتي بلفظ الفاعل و « فصل فى الفاعل يأتي بلفظ المفعول (51). و « فصل فى المدح يراد به الذم فيجرى مجرى التهكم والهزل » . ويحتوى الفصل الاول على سبع كلمات. ودرج فيه على ذكر الكلمة فى عبارة ، ثم يفسرها باسم المفعول . قال : « تقـول العـرب : سر كاتـم : اي مكتوم . ومكان عامـر : اي معمـور » . ولم يـورد الالفاظ الباقية فى عبارات ، بل فى آيات قرآنية ، والاخيرة منها فى بيت من الشعر ، وفسرها كالكلمات الاولى . قال : « وفى القرآن لا عاصم اليوم من امر الله ) اي لا معصوم . وقال تعالى : ( خلق من مـاء دافق ) اي مدفوق . وقال : ( عيشة راضيـة ) اي مرضية . وقال الله سبحانه : ( حرمـا آمنـا ) اي مأمونا . وقال جرير :

ان البليـة مـن تمـل كلامـه
فانفع فؤادك من حديث الوامق

اي من حديث الموموق » .

ويحتوي الفصل الثاني على لفظين ، ذكرهمـا المؤلف فى آيتين ، وفسرهما باسـم الفاعـل قال : قال تعالى : ( انه كان وعده مأتيا ) اي آتيا . وكما قال جل جلاله : ( حجابا مستورا ) اي ساترا » .

---

(49) 177 – 181 .
(50) 5652 .
(51) 492 .

ويحتوي الفصل الثالث على اربع عبارات، تجري مجرى الاستهزاء فى كتب الاضداد ، والاخيرتان منها آيتان قرآنيتان . ولم يعلق المؤلف على الأقوال او الآيات ، ولم يفسرهما لوضوح مقصده منها فى عنوان الفصل . قال : « العرب تفعل ذلك ( يريد الاستهزاء بالتضاد ) فتقول للرجل تستجهله : يا عاقل . وللمراة تستقبحها : يا قمر . وفى القرآن : ( ذق انك انت العزيز الكريم ) . وقال عز ذكره : ( انك لانت الحليم الرشيد ) » .

— * —

## المخصص

وافرد ابن سيده فى كتابه « المخصص » (52) بابا للاضداد سماه « كتاب الاضداد » . واعتبر ابن سيده هذا الباب كتابا بالفعل ، والاضداد مشكلة علمية جديرة بالبحث ، فصدر الباب بمقدمة فى بحثها . وتناول فى هذه المقدمة تقسيم الكلام الى مختلف ، ومترادف ومشترك وعلل كل قسم منها ووضع الاضداد فى المشترك وبين ان اصل وجودها اللغات والمجاز ، ورد على منكريها كما رد على منكري الترادف . واقام كلامه هذا فى المقدمة على ما قاله سيبويه فى اول كتابه ، وشرح ابي علي الفارسي لهذه الاقوال .

واورد ابن سيده فى بابه حوالي مئة ضد ، اعتمد فى الشطر الاول منها على أبي عبيد ، وفى الثاني على ابن السكيت ، واورد فى الجزء الاخير منها اضدادا من مصادر متفرقة . ولذلك نرى الشطر الاول يسير متفقا مع ترتيب باب اضداد الغريب المصنف اتفاقا تاما ، عدا مواضع متفرقة قليلة زاد فيها ابن سيده مادة من مصدر آخر، او اختل الترتيب فيها . ونرى الشطر الثاني يسير متفقا مع ترتيب كتاب ابن السكيت تماما ، مع حذف المواد التى سبق اقتباسها من ابي عبيد . اذا كان الاثنان اشتركا فيها .

وسار ابن سيده على النهج الذى سار عليه ابو عبيد الا انه مال الى الاختصار اكثر منه . وتمثل هذا الاختصار فى تغيير عبارته ، وعبارة ابن السكيت ، بما يضغطها ولا يخرجها عن معناها . نرى ذلك فى قوله (53) : « يقال لقت الشيء المقه لمقا : كتبته، عقيلية ، ولقته محوته ، قيسية » .

ونرى ذلك فى قوله (54) : « المقوي : الذى لا زاد معه ولا مال له ، والمقوى : المكثر : يقال : اكثر من ( اتيان ) فلان فانه مقو ، والمقوي : الذى ظهره قوي » . وحذف فى بعض المواضع عبارات ضرورية فى المادة . مثال ذلك قوله (55) « السدفة : اختلاط الضوء والظلمة معا كوقت ما بين صلاة الفجر الى الاسفار » فاقتصر على العبارة الاخيرة من قول أبي عبيد ، ولم يظهر وجه اعتباره المادة من الاضداد لما حذفه منها .

وتمثل الاختصار فيما حذفه من اشياء . فقد حذف اسماء اللغويين الذين رووا الاضداد وذكرهم ابو عبيد وابن السكيت ، واكتفى بنسبتها الى أبي عبيد وابن السكيت . وكان ابو عبيد خاصة يجب ان يشير الى الاضداد التى اتفق فيها بعض اللغويين ، فحذف ابن سيده كل ذلك ..

وحذف بعض الشواهد ايضا .

اما الشواهد التى ذكرها فحذف كثيرا من اسماء قائليها ، وكان ابو عبيد وابن السكيت يذكرهم . وآخر مظاهر الاختصار عدم تكريره اللفظ مع المعنيين المتضادين اكتفاء بذكره مرة واحدة فى اول المادة ، فى بعض الاضداد ، مثل : « شريت : بعت واشتريت ... دحت الشيء دوحا : جمعته وفرقته ..

ولكن — برغم ميله الى الاختصار — كان لا يحذف شرح الشاهد او التعليق عليه ، كما نرى فى شرى ، وشعب ، وجون وخلوف والظن وغيرها . وكان فى بعض المواضع يحذف الشاهد ويأتي بآخر بدلا منه ، كما فعل فى « سواء » .

ويمتاز هذا الباب — الى جانب الاختصار — بما اتى به من اضداد زائدة على ما فى كتب ابن السكيت وابي حاتم وابن الانباري . فقد رجع — للمرة

---

(52) 13 : 258 .
(53) 26 .
(54) 265 .
(55) 261 .

الاولى فى تاريخ الاضداد ـ الى معاجم اللغة الكبيرة، كجمهرة ابن دريد ( دوح والعكوك وخفق وغيرها ) والعين للخليل ( الحصباء والزاهق ) ورجع الى علماء لم يؤلفوا فى الاضداد ، ولكن التقطوا منها أشياء كأبي حنيفة الدينوري ( الزاهق ) أو الفوا فيها ، ولكن روى عنهم اضدادا ليست فى كتبهم كابن السكيت ( الحرج ) . ولا يختلف علاجه لهذه الاضداد الزائدة عن علاجه لاضداد ابي عبيد وابن السكيت ، غير أنه خصص لها الجزء الاخير من بابه . وان تناثر منها شيء فى داخل كلامه المقتبس عن ابي عبيد وابن السكيت ..

ولم يزد فى الاضداد وحدها ، بل زاد أحيانا فى الشرح ، مثل ما فى ( أودع ) ، واحيانا بايراد بعض المشتقات التى لم يوردها سابقوه ، مثل ما فى ( المشيح ) ، وبعض الزيادات الاخرى التى نرى أمثلتها فى نهل . وشرى ، ومثل ، وظن ، وسواء ، وخشب وغيرها . وكان فى بعض الاحيان أو أكثرها ينسب هذه الزيادات الى اصحابها .

وفى آخر الباب جمع ابن سيده بعض الالفاظ، وجعل عنوانها « ما هو فى طريق الضد » . وهو فصل شبيه بالقريب من الاضداد او ما يجري مجراها ، مما رايناه فى كتب الاضداد . واورد فيه بعض الالفاظ التى تختلف معانيها اختلافا يكاد يكون متضادا ، مثل قوله : « سنح عليه الشيء يسنح سنوحا : سهل، وسنحت بالرجل : احرجته » . وروى أحد هذه الالفاظ عن ابن السكيت ( وليست فى اضداده واحدها عن صاحب العين واحدها عن أبي زيد والخليل معا . ويحتوي الفصل على اربعة الفاظ فقط .

وخلاصة القول ان هذا الباب من المخصص جدير باسم « كتاب الاضداد » الذي اطلقه عليه مؤلفه فهو لا يقل عن الكتب المستقلة فى شيء ـ لا فى مقدمة تبحث المشكلة ، ولا عدد الاضداد او علاجها او شواهدها ، أو ما الى ذلك . بل ماثلها فى العناية بما يجري مجراها ايضا . ولكنه من الكتب التي تميل الى الاختصار ، فتركز اهتمامها بالاضداد ، وما يوضح تضادها من شواهد وعلاج ، فلا تكثر من الاستطراد وتناول الامور النحوية واللغوية والمعاني الاخرى للاضداد ، وما ماثل ذلك من امور وجدناها فى بعض الكتب المستقلة . فهو فى مرحلة متوسطة بين هذه الكتب وبين كتاب الصغاني القاصر على متن الاضداد ، أو هو بعبارة ادق ، فى مرحلة متوسطة بين باب الاضداد عند ابي عبيد وكتاب الصغاني من حيث التناول ، ولكنه يفوق باب ابي عبيد من حيث عدد الاضداد التى يحويها . وادق وصف له أنه اعظم باب من مجموعة لغوية فى عدد الاضداد ، ومن احسنها دقة تناول . ولا يعيبه غير بعض ما اجراه من حذف شديد فى بعض الاضداد القليلة حتى جعلها غير واضحة ..

— * —

## المزهـــر

وفى القرن العاشر الهجري افرد السيوطي فصلا من كتابه « المزهر » للاضداد ، وعنوانه « النوع السادس والعشرون : معرفة الاضداد » . وعالج السيوطي الاضداد علاج ابن سيده لها ، اي اعتبرها مشكلة لغوية تستحق البحث والنقاش . فقدم بين يدي فصله مقدمة تناولت تقسيم الكلام ، واقوال بعض اللغويين فى ذلك وفى الاضداد بنوع خاص ، والدفاع عنها ، والرد على منكريها . واقتبس اقواله هذه من علماء لم نرهم فى المخصص ، مثل الكيا ، وابن فارس والمبرد . ثم انتقل من هذه المقدمة الى الاضداد نفسها .

واعتمد السيوطي فى الجزء الاول من اضداده على ما رواه ابو عبيد فى الغريب المصنف ، كما فعل ابن سيده . ولكنه حين انتهى من أضداد ابي عبيد لم يقتبس اضداد ابن السكيت مثله بل تتبع الاضداد فى بعض المعاجم مثل جمهرة ابن دريد ، وديوان الادب للفارابي ، والصحاح للجوهري ، والجمل لابن فارس والقاموس للفيروزابادي ، وكتب الامالي والرسائل الخاصة مثل أمالي القالي ، ومجاز الكلام وتصاريفه لثعلب ، وادب الكاتب لابن قتيبة ، ونوادر ابن الاعرابي والمقصور والممدود للاندلسي ، والمشاكهة للأزدي ، والافعال لابن القوطية . ويتضح من هذا ان السيوطي خالف القدماء فى المراجع التى اعتمد عليها . فقد كانوا يستقون من كتب الاضداد نفسها، واستقى ابن سيده للمرة الاولى من بعض المعاجم . فلما جاء السيوطي اكثر من هذا الورد وتوسع فيه حتى صار الاصل عنده .

ونهج السيوطي لنفسه ان يذكر اللفظ ومعنييه المتضادين ، وقد يكرر اللفظ مع كل معنى . ولا يعنى الا بما تعلق بالاضداد نفسها ، اي يحذف

الشواهد ، والشروح ، والمشتقات وما اليها ، فلا ذكر لها عنده ، الا في النادر جدا . فبابه من « متون الاضداد » اي من نوع كتاب الصغاني . يقول مثلا (56) : « اجعلب الرجل : اذا اضطجع ساقطا ؛ واجعلبت الابل : اذا مضت جادة . وبعت الشيء : اذا بعته من غيرك ، وبعته : اشتريته . وشريت : بعت واشتريت . وشعبت الشيء : اصلحته ؛ وشعبته : شققته ، وشعوب منه ؛ وهي المنية لانها تفرق . والهاجد : المصلي بالليل . والهاجد : النائم » .

ولجأ في الاضداد التي نقلها عن ابي عبيد الى ترتيبها على قائلها . فقد نثر ابو عبيد اضداد كل لغوي نثرا دون ان يجمعها في موضع واحد ، فكانت عنده مختلطة بما يروى لغيره فلما ادخلها السيوطي في فصله ، فصل كل نوع على حدة ، وقدم اضداد ابي زيد ، فالاصمعي فابي عبيدة فالكسائي فالاموي، فما رواه غير واحد ، فاضداد ابي عمرو ، فالاحمر . وكان واجبا عليه تأخير الاضداد المهملة الى ما بعد اضداد الاحمر . ومن الغريب ان «الاحمر» لا يرد له ذكر في فصل الاضداد من كتاب الغريب المصنف الموجود في ايدينا اليوم ، وربما سقط الاسم من نسختنا وكان في نسخة السيوطي . اذ ان هناك بعض الاختلاف بين النسختين ، فبينما تنسب نسختنا : « شعب » للاصمعي ، ينسبها السيوطي لابي زيد ، وسقط من نسختنا احد معنيي « اشكى » المتضادين ، وهو موجود عند السيوطي .

ولكن السيوطي عندما ترك اضداد ابي عبيد اضطرب ، ولم يفلح في ترتيبها حتى على ترتيب الكتب التي اخذ منها ، بل اورد ما وقع منها تحت نظره ، ولو كان سبق ذكره . ولذلك تكررت عنده بعض المواد مرتين واكثر ، مثل « سوى » رواها عن ابي عبيد — وابن دريد ، و « الفابر » رواها عن ابن دريد والجوهري ، و«نصل» عن الفارابي والجوهري، وغيرها . فبلغت الاضداد عنده قريبا من مئة وعشرين ، وهي في الحقيقة اقل من ذلك كثيرا .

وختم السيوطي فصله بفائدة ذكر فيها اسماء بعض من الف في الاضداد ، ثم سرد اكثر مقدمة كتاب الاضداد لابي بكر بن الانباري ..

---

(56) 1 : 188 .

وخلاصة القول في هذا الفصل انه يضارع فصل ابن سيده ، ولا يقلل من شأنه الا استغناؤه عن الشواهد ، فهو من هذه الناحية يوضع مع كتاب الصغاني ، غير ان هذا يفوقه في الترتيب والتنظيم وخلوه من التكرار .

— * —

## « الخاتمة »

الاضداد ظاهرة غريبة .

فالذهن ينكرها للوهلة الاولى ، ويأبى ان يصدق وجود لفظ واحد يدل على معنى وضده . فالمنطق العقلي يعرف الضدين بأنهما الامران اللذان لا يقعان على شيء واحد ، وفي وقت واحد . ومن ثم كانت الالفاظ الاضداد غريبة في ماهيتها . وعلى هذا الاساس انكرها من انكرها . ولكن هذا الاساس لم يمنع ان يؤمن بها جماعات من القدماء ، وقلة من المحدثين . وكانت الفئة الاخيرة — او افراد منها — هي التي حاولت ان تعلل هذه الظاهرة الغريبة بالرجوع الى التفكير البشري في فطرته وسذاجته ، او بالتأمل في مراحل معينة من التاريخ البشري او التاريخ العربي القديم .

ولعل ظاهرة لغوية اخرى بمثل سوء الفهم الذي احيطت به ظاهرة الاضداد . فمنذ عهد مبكر ، اختلف اللغويون فيها ، ولا زالوامختلفين . فاذا تأملنا ما دار بينهم من نقاش وجدنا الفاظهم وعباراتهم تتنافر وتتصادم ، والمؤدى الاخير لما يقولون واحدا. فهم يتجادلون حول تصورين لا تصور واحد ، وفي مجالين لا مجال واحد . ولو تحدثوا عن تصور واحد، وفي داخل مجال واحد ، لهدأ كثير من الخصومة ، وبطل كثير من الادلة ، وربما ضاع الخلاف .

فقد كان المنكرون للاضداد ينظرون في مجال ضيق لا يتجاوز اية لهجة قبلية على حدتها . ولما لم يعثروا على اضداد في داخل اللهجة الواحدة انكروا الاضداد برمتها . وابوا ان يسموا بالاضداد ما جاء دالا على معان متضادة في لهجات قبلية مختلفة ، وان ضمتها اللغة العربية بعد .

وقصر المنكرون تصورهم على الالفاظ فى وضعها الاول. واعلنوا انهم لم يجدوا لفظا واحدا وضعه العرب حين وضعوه دالا على معنيين متضادين. اما اذا كان الاستعمال او التبدلات اللغوية او التغييرات الصرفية قد ادت بعد ذلك الى ان تزول الفوارق بين بعض الالفاظ ذوات المعاني المتضادة ، فتبدو الآن فى صورة واحدة ، ومتضادة المعنى ، فليس ذلك من الاضداد عندهم .

ونستطيع ان نقول : ان كل لفظ توفر له سبب ما فأدى به الى الدلالة على معنيين متضادين يأبى المنكرون ان يسموه ضدا ، مهما كان هذا السبب : لهجات قبلية ، او حذفا ، او تخفيفا او ابدالا ، او اعلالا ، او مجازا ، او تفاؤلا وتطيرا ، او ما شاكل ذلك من أمور . وانما الضد عندهم يجب الا يكون هناك سبب فى دلالته هذه ، بل وضع أصلا لها .

اما المؤيدون للاضداد فوسعوا نظرتهم ومجالهم. نظروا الى اللغة العربية فى شمولها وعمومها . فلفت نظرهم وجود هذه الفئة من الاضداد . ثم لم يعنوا بالبحث عن اسبابها او — ان شئنا الدقة — لم تهمهم الاسباب — فقد عرفوا اسبابا الظاهرة . واعلن اكثرهم أن كثيرا من الاضداد آتية من اللهجات القبلية ، وكشفوا عن كثير من هذه الطائفة من الالفاظ . ولا خلاف بينهم وبين المنكرين غير انهم ارتضوا تسمية هذه الالفاظ القبلية بالاضداد ، ولم يرتضها الاخيرون .

كذلك لم يقصر المؤيدون نظرتهم على الالفاظ عند وضعها الاول ، بل اغفلوا هذا الوضع عامدين اذ لا اهمية له عندهم . وامعنوا النظر فى الالفاظ العربية التى يسمعونها ، ويتحدثون بها ، ويدونون ما يدونون . فوجدوا فيها فئة من هذه الالفاظ ، التقطوها ومنحوها اسم الاضداد دون ان يأبهوا للاسباب التى ادت بها الى ذلك ، ودون ان ينكروا هذه الاسباب . بل لقد شارك بعضهم كقطرب فى الكشف عن بعضها كالتوسع وما شاكله ، لان وجود سبب للتضاد لا يتنافى عندهم مع التسمية .

ولعل الاجابة عن الاسئلة التالية تزيل كل لبس امام المتنازعين :

1 — هل توجد فى العربية الفصحى التى نعرفها اليوم الفاظ ذوات صورة واحدة ، ومعنيين متضادين؟ اعتقد ان احدا لا يستطيع ان ينكر هذا الوجود .

2 — هل تعد هذه الالفاظ ظاهرة خاصة يجدر بها التسجيل بين الظواهر اللغوية ؟ اعتقد ان احدا لا ينكر هذا ايضا . واضيف الى ذلك ان هذه الظاهرة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل توجد فى بعض اللغات السامية كما كشف بعض المستشرقين ، وفى بعض اللغات الاوربية كما كشف الاستاذ عبد الفتاح بدوي . واذن فوجود الاضداد ليس منقصة للغة العربية ، كماظن الشعوبيون قديما ، وكما يفهم من اقوال بعض المستشرقين حديثا ، مما كان واحدا من الدوافع — فى اعتقادي — التى حملت عبد الفتاح بدوي على المغالاة فى رفض الاضداد .

3 — هل تستحق هذه الظاهرة تسمية خاصة ؟ اعتقد ان كل ظاهرة مهما كان شيوعها يجدر بها ان يكون لها اسم خاص . اما المؤيدون فقد سموها « الاضداد » ، فاذا كان المنكرون يجدون لها تسمية اكثر ملاءمة ، فأهلا بها .

4 — هل الاضداد بالشيوع الذى صوره القدماء ؟

واضح من الدراسة الماضية ان تصور الاضداد اختلف من وقت لآخر ، ومن رجل الى رجل ، فضاق حينا واتسع آخر . فكان تصور الاضداد ضيق المجال فى بادىء الامر عند المتحدثين فيها دون ان يحاولوا لها جمعا او تدوينا . ولكن هذا التصور اتسع اتساعا غريبا عند اول مؤلف فى الاضداد : قطرب ، فشمل شتاتا غريبا من الالفاظ ، مما يدل على ان قطربا لم يكن يحسن تصور الاضداد ، ولا احسن وضع الحواجز الفاصلة بينها وبين غيرها واضطر اكثر من جاء بعد قطرب الى تضييق المجال الذى وسعه ، ونفي كثير من الفئات والالفاظ التى ادخلها فى كتابه . فأخذ تصور الاضداد فى الوضوح ، وحدودها فى البروز . ثم اتسع المجال مرة اخرى عند ابن الانباري خاصة بما ادخل من انواع جديدة من الاضداد . واذن فالمجال كان متغيرا عند القدماء ، وما اظن الا انه كذلك عند المحدثين ، وان كان اضيق عندهم منه عند القدماء .

5 — هل نعد كل الانواع التى اتفق عليها القدماء من الاضداد ؟.

اعتقد ان احدا لا يجادل فى ان ذلك مستحيل، وان بعض ما عده القدماء من الاضداد لا يستحق هذه التسمية . واضرب امثلة لذلك بما يلي :

أ ــ ما اختلف فى تفسيره من الآيات، والاشعار، والاقوال . فالاتفاق تام بين اللغويين انه لا يوجد فيها لفظ ذو معنيين متضادين . وانما جاء التضاد من اختلاف الناس فى فهم هذه العبارات فى مجموعها . ومثال ذلك الآية التى اوردناها سابقا : ( وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه ) . فقد اختلف المفسرون فيما يتعلق به الجار والمجرور ( من آل فرعون ) . فذهب بعضهم الى انه متعلق بمحذوف صفة لـ ( رجل ) ، فصار القائل عندهم رجلا مؤمنا، من أقرباء فرعون ، يكتم ايمانه عن الناس جميعا . وذهب بعضهم الى انه متعلق بالفعل ( يكتم ) وان الآية حدث فيها تقديم وتأخير ، وان الترتيب العادي لها : قال رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون ، فصار القائل عندهم رجلا مؤمنا ، غير انه يخفي هذا الايمان عن آل فرعون . وليس هذا وامثاله من الاضداد فى شيء .

ب ــ الفاظ وعبارات التفاؤل والتطير والاستهزاء . فاننا يجب ان نعترف ان المتحدث قد يتكلم على وقع ذهني ، يصدق احيانا على الواقع الخارجي ولا يصدق اخرى . فالمتحدث ( المتفائل او المتطير ) يكره الواقع الخارجي ، ويحاول ان يتجاهله ، فيوفر لنفسه كل السبل التى تؤدي به الى نسيانه. ومن اهمها عدم التحدث عنه او اعطاؤه اسما آخر لا يدل عليه . واذن فالمتفائل حين يسمي الملدوغ سليما ، والمريض معافى ، لا يريد الصورة التى يكرهها ، بل الصورة التى يحبها . فاللفظ اذن مستعمل فى معناه الاصلي ، وان كان لا يتفق مع الواقع الخارجي . اضيف الى ذلك ان المتحدث يريد ان يرسم فى ذهن المستمع صورة متفائلة . فاللفظ لا يدل الا على معناه الاصلي عند المتكلم والمستمع كليهما ، وان كان معناه ذهنيا لا واقع له فى الخارج . لو لم يكن الامر كذلك ، لما كان هناك تفاؤل او تطير او استهزاء . واذن ليس هذا وامثاله من الاضداد فى شيء .

ج ــ ما وضع فى الاضداد تعسفا او تكثرا ، مثل الالفاظ التى تختلف معانيها دون ان تتضاد ، والالفاظ التى تتضاد معانيها بسبب ما يتعلق بها من ادوات كرغب عن والى ، وانصرف عن والى ، وغيرهما .

6 ــ ما السبيل الى معرفة اللفظ الجدير باسم الضد ؟

اعتقد ان السبيل الوحيد الى ذلك هو المعنى الذى يدل عليه اللفظ . وهنا احترز فأقول المعنى الحق للفظ . واعني بهذا الاحتراز امثال هذه الالفاظ التى لم يحسن بعض اللغويين التنبه الى معناها الحق، ونسبوا اليها معاني بدت متضادة . فالصريم هو الوقت المنقطع ، اعني الوقت المنقطع من وقت آخر، كالليل ينقطع من النهار ، والنهار ينقطع من الليل ، وليس الصريم الليل خاصة ولاالنهار خاصة . والدليل الجلي على ذلك اصل اللفظ ، ومعناه ، فأصله الصرم ومعناه القطع .

والسدفة ليست ظلمة حالكة ولا ضوءا مشرقا ، بل هي الظلمة التى ينبعث فيها الضوء ، او الضوء الذى تشوبه الظلمة ، هي اختلاط الظلمة بالضوء ، سواء كان هذا عند دخول الليل او انبلاج الصباح .

وامثال ذلك كثيرة ، فطن اليها بعض القدماء انفسهم ، كما فعلوا فى الأتم والطرب وغيرهما . وليست هذه الالفاظ من الاضداد فى شيء.

واذن فما وجدنا معانيه تؤول الى معنى واحد لا تضاد فيه يجب ان نخرجه من الاضداد . وما دل من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا او ذهنيا ، يجب ان نخرجه من الاضداد .

وانما يجب ان يكون الضد لفظا واحدا ، ذا صورة واحدة ، ومعنيين متضادين حقا لم يمكن الجمع بينهما . تلك هي الصورة الصحيحة للاضداد ، وذلك هو السبيل القويم الى تطبيقها .

## « المراجـــــع »

### المطبوعـــــة


الاصمعي ، ابو سعيد عبد الملك بن قريب :الاضداد ، طبع بيروت 1913 .

ابن الانباري ، ابو بكر محمد بن القاسم : الاضداد ، طبع الكويت 1960 .

الثعالبي : سر العربية فى مجاري كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن على اكثرهـا ، طبـع المكتبة التجارية 1938 .

الخليل بن احمد : العيـن ، مصـور بمكتبـة المجمع العلمي العراقي ببغداد ، وطبع الجـزء الاول منه ببغداد 1967 .

ابن دريد ، ابو بكر محد بن الحسن : الجمهرة،طبع حيدر اباد بالهند .

ابن الدهان ، ابو محمد سعيد بن المبارك : الاضداد ، المطبعة الحيدرية بالنجـف 1371 ـ 1952 فى نفائس المخطوطات .

الـرازي ، ابو الحسـن احمـد بن فـارس :الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامهـا ، طبع بيرت 1964 ـ 1383 .

السجستاني، ابو حاتم سهل بن محمـد : الاضداد ، طبع بيروت 1913 .

سيبويه ، ابو بشـر عمرو بن عثمان : الكتاب ، طبع بولاق 1316 .

ابن سيده : المخصـص ، المجـلد 13 ، طبـع بولاق .

السيوطي : المزهر فى علوم اللغة وانواعهـا ، طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

الصغاني ، ابو الفضائل الحسن بن محمـد : الاضداد ، طبع بيروت 1913 .

ابو الطيب اللغوي الحلبي عبد الواحد بن علي :الاضداد فى كلام العرب ، طبـع دمشـق 1382 ـ 1963 .

عبد الفتاح بدوي : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اضداد ( الطبعة العربية ) .

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسـلم الدينوري : ادب الكاتب ، ط الرابعة 1382 / 1963 .

قطرب ، ابو علي محمد بن المستنير : الاضداد، فى مجلة Islamic ، المجلد الخامس ، سنة 1931، من ص 247 الى293 .

المبـرد : الكامل ، طبع مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر .

منصور فهمي : الاضداد ، مجلة مجمع اللغـة العربية ( الملكي ) ، الجزء الثاني ، صفـر 1354 ـ مايو 1935 .


### المخطـــوطـــة


احمد بن احمد بن اسماعيل الحلواني : الكاس المروق ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

عبد الله بن محمد بن القاضي : منبه الرقـاد فى ذكر جملة من الاضداد ، مخطوط بدار الكتب المصريـة .

عبد الله بن نجا الابياري : دورق الانداد فى نظم اسماء الاضداد ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

ابو عبيد القاسم بن سلام : الغريب المصنف . مصور بمكتبة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

محمد المدني : الاضداد . المكتبة السليمانيـة بالاستانة ، فى مجموعة تحت رقم 1041 ، يبـدا الكتاب من وجه ورقة 98 الى وجه ورقة 103 .

## المـراجـــع الأجنبـيـــة


Abel: Uber den Gegensinn der Urworte, Leipzig 1884.

Giese: Untersuchungen uber die Addad auf Grund von Stellen aus altarabischen Dichtern, Berlin 1894,

H. Hirchfeld: The Journal of Royal Asiatic Society, 1895.
تعريف وتعليق على كتاب جيز السابق .

Landau: Die gegensinnigen Wörter im Alt—und Neuhebräischen, Berlin 1896.

Landberg, Le comte de: La langue arabe et ses dialectes, Leide 1905.

Leguest: Etudes sur les formations des racines sémitiques, Paris 1858.

Nöldeke: Worter mit Gegensinn (Addad), Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.

Th. M. Redslob: Die arabischen Wörter mit entegegengesetzen Bedeutungen, Göttingen 1873.

Weil: Addad, in Encyclopydia of Islam.

# دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الإفريقية (1)

إدريس الكتاني
الأستاذ بجامعة محمد الخامس (الرباط)

ان اللغة ليست اداة تفاهم واتصال فقط ، ولكنها أيضا اداة للتفكير والتأمل . والانسان يفكر باللغة التي يتكلمها ، ويعيش تحت تأثير قيمها الثقافية والعلمية والدينية ، وباختصاصه واستيعابه لرموز لغته الوطنية، وكناياتها ، واستعاراتها ، وايحاءاتها ، ودلالاتها الخاصة بالزمان والمكان ، يستطيع أن يدرك الحقائق العلمية ، والظواهر الاجتماعية ، ويتجاوب مع الناس والاحداث، وينمي طاقاته العقلية والبدنية والانتاجية ، وذلك ببذل نفس المجهود المعتاد في البلدان المتقدمة .

لكن عندما يفرض على شعب متخلف استعمال لغة اجنبية عنه ، لاسباب استعمارية او سياسية او طبقية او مذهبية ، هل تستطيع اللغة الاجنبية ان تؤدي وظيفة اللغة الوطنية ، وان تصبح اداة سهلة لتحقيق الاهداف الوطنية ، وخاصة ما يتعلق بمحاربة الامية ، وايقاظ الوعي الوطني ، ونشر الثقافة والقيم الاخلاقية ؟ وهل سيكون بوسعها ان تساعد على تعميم التعليم ، وتحقيق تطور اقتصادي واجتماعي لعموم المجتمع ؟ ..

ان الدور الهام الذي لعبته اللغات في تاريخ الحضارات والفكر البشري ليس بالشيء المجهول الذي يحتاج الى توضيح جديد هنا ، واذا كانت الدول الكبرى خلال التاريخ ، وفي العالم المعاصر ، تهتم بتطوير ونشر لغاتها الوطنية، فلتقديرها لهذا الدور ، وشعورها بأهميته البالغة في بنيانها الاجتماعي ، وعظمتها الدولية .

وتعتبر فرنسا من اشد الدول المعاصرة احساسا بهذا الدور ، ولذلك فهي تبذل في سبيل لغتها ما لا تبذله اية دولة اخرى .

### منظمة اليونسكو تنصح الدول النامية باستعمال لغاتها الوطنية في التعليم

وفي تقرير اعدته لجنة من خبراء اليونسكو كلفت بدراسة مسالة الحفاظ على اللغات الوطنية للشعوب النامية ، وتطورها ، والتدابير التي يمكن اتخاذها للتعجيل باستعمالها في التعليم ، طبقا لرغبات هذه

---

(1) « نشر هذا البحث أولا باللغتين الفرنسية والانجليزية بمجلة « Cahiers Africains d'Administration Publique » التي يصدرها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري للتنمية « CAFRAD » التابع للامم المتحدة بمدينة طنجة ، في عددها الخاص بتحضير المؤتمر الافريقي المنعقد بطنجة في 18 شتنبر 1972 لدراسة « مشاكل نمو الطاقات البشرية والتسيير في القطاع العام الافريقي » عدد 8 غشت 1972 . وقد تفضل السيد الاستاذ الكتاني باتحاف مجلتنا بهذا البحث القيم الذي نختصره للقراء .

الشعوب ، وعلى اساس التجارب المعروفة فى البلدان الاخرى ، اكدت لجنة اليونسكو هذه انه لا يوجد اي عائق فى نظام لغة ما يحول بينها وبين جعلها لغة حضارة حديثة ، وترى هذه اللجنة انه اذا كانت ( اللغة الأم ) كفيلة بأن تكون لغة للتعليم الجامعي والتقني ، فانه يجب استعمالها لهذا الغرض ، وطلبت اللجنة ايضا من هيئة اليونسكو ان « تدرس » امكانيات تنسيق المصطلحات العلمية والفنية للغات العلمية ، وذلك لمساعدة اللغات النامية على ان تكون لها مصطلحاتها الخاصة ، وان تتطابق فى ذلك ، بقدر الامكان ، مع مصطلحات اللغات العالمية .

## البنك الدولي للبناء والتنمية ينصح باستعمال اللغة الوطنية فى التعليم

وهناك مؤسسة مالية دولية اخرى اتخذت موقفا من اللغات الاجنبية يتفق مع موقف اليونسكو ، ففي سنة 1963 طلبت الحكومة المغربية من البنك الدولي للبناء والتنمية القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب ، وفى التقرير الذي اعدته بعثة البنك ، بعد ان قضت فى المغرب شهرا فى الدراسة والبحث ، نصحت الحكومة المغربية ، ومن وجهة نظر اقتصادية بحت ، بأن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الابتدائية توفيرا لـ 30 ٪ من وقت التلاميذ والمعلمين ، وتوفيرا لنحو 7 ملايير من الفرنك التي تنفق بدون طائل فى هذا المجال ، وتخصيص هذا المبلغ الضخم فى طبع الكتب ، واعداد الادوات المدرسية ، وتكوين المعلمين ، الى آخر ما جاء فى التقرير من النصائح المتعلقة بتخطيط سياسة وطنية ملائمة لحاجاتنا ومصالحنا .

## تجربة اللغة الاجنبية فى شرق وغرب افريقيا

كانت اللغة الانجليزية حتى سنة 1963 هي اللغة الرسمية لدول افريقيا الشرقية الثلاث : طنجانيقا وكينيا واوغندا ، كما هي الحال فى مستعمراتها الافريقية السابقة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني اكثر من انها لغة نخبة تمثل نسبة ضئيلة من السكان ، لا يتجاوز مستواها بضعة اعوام فى التعليم .

واكبر مشكلة واجهتها هذه البلدان بعد استقلالها السياسي هي ان الاسلوب التربوي عندها من وضع النظام الاستعماري الذي عمل على ان يتناسب ويتطور مع مصلحته هو لا مصلحة البلد الافريقي الذي يعنيه الامر ، ونظرا لذلك فان الشخصية الوطنية لاغلب الدول الافريقية اصبحت هي نفسها من مخلفات الاستعمار ، فليس من المدهش اذن ان عددا قليلا جدا من هذه الدول هي التي استطاعت ان تتبنى لغة فصحى للتلقين (Langue véhiculaire) تكون فى نفس الوقت « وطنية » و « افريقية » .

ان الاساتذة لوو وكرانت ووليامس (Low, Grant et Williams) فضلا عما اكدوه من ان الاطفال الذين يدرسون بلغة تختلف عن لغة الامومة لا يتقدمون الا ببطء ، يعترفون بأن الانجليزية تعلم بطريقة سيئة جدا فى افريقيا ، واغلب المعلمين فى عدة نواح افريقية لم يتلقوا اي تكوين ، وخاصة فى افريقيا الغربية ، وحسب تقرير بانجو Banjo سنة 1962 ، كان يوجد فى نيجيريا الغربية 26 000 معلم من بين 40 000 لم يقع تكوينهم .

« وهذه الانتقادات تتوجه خاصة الى المدارس الابتدائية ، ومع ذلك فان التعليم الثانوي ايضا لا يقوم الا على اقلية من التلاميذ ، ويوشك الامر ، كما هو حاصل فى الهند ، ان تنفصل النخبة عن الشعب ، بسبب استعمال اللغة الانجليزية » .

وبعد استقلال الدول الافريقية استعملت بعض اللغات الافريقية المحلية فى نطاق معين ، فى المستوى الابتدائي ، ولكن الانجليزية والفرنسية لم تلبثا ان دخلتا فى سلك التعليم ، وغالبا فى السنة الاولى من الثانوي، واصبحتا لغات فصحى .

ويلاحظ ان طانجانيقا هي احدى البلدان الافريقية النادرة ـ باستثناء الدول العربية الافريقية ـ التي لها لغة وطنية ، هي اللغة السواحلية . وقبل استقلال هذه البلاد فى 2 دجنبر سنة 1961 ، عمل حزب الاتحاد الوطني الافريقي لطانجانيقا « Tanu » على تعليمها فى مدارس وطنية خاصة تابعة له ، كما عمل على تعليمها للكبار فى البلاد كلها ، ولم يتردد بعد استقلال البلاد فى استعمالها كلغة رسمية فى دوائر الحكومة والبرلمان والتعليم ، وشرع فى ترجمة النصوص التشريعية الى هذه اللغة ، وفى سنة 1965 اصبحت اللغة السواحلية اجبارية فى جميع المدارس الثانوية ، وفى سنة 1968 فقط نظم اول درس جامعي عن الادب السواحلي فى تنزانيا .

ولم تصل سنة 1970 حتى فرض على جميع التلاميذ ان يجتازوا امتحانا فى هذه اللغة فى مستوى البكالوريا . « مع العلم بأن تعليما متقدما باللغة الانجليزية لا يزال مفروضا فى السنة الاولى من التعليم الثانوي ، ويتمنى فى بعض الاوساط ان تصبح التربية الوطنية كلها بما فيها التعليم الجامعي باللغة السواحلية ، ومع ذلك فان اعداد المواد البيداغوجية قلما يتجاوز مستوى المدارس الابتدائية » .

وفى سنة 1970 ايضا اعتبرت اللغة السواحلية الوحيدة التي يمكن لمرشحي الاتحاد الوطني الافريقي استعمالها اثناء حملتهم الانتخابية ، وفعلا فقد صرح نائب رئيس الجمهورية رشيدي كاواوا قائلا : « اذا كان السكان لا يعرفون اللغة السواحلية فان جميع المرشحين يجب أن يكونوا مصحوبين بمترجم » ، وعندما اصدر كاواوا الأمر لجميع الادارات الرسمية ، والى لجان الاتحاد ، سواء على المستوى الاقليمي او فى المقاطعات ، باستعمال اللغة السواحلية كلغة تعبير ادارية قدم ، بصفة خاصة ، الملاحظات التالية : « ان اكبر جزء من الاوراق المستعملة لا تزال حتى الآن مطبوعة بالانجليزية مع اننا نعلم جيدا ان اغلبية الذين يعنيهم الامر لا يعرفون هذه اللغة ، انها اهانة موجهة الى الامة » .

وفضلا عن ذلك فقد قام الرئيس نيريرى بترجمة يوليوس قيصر (Jules César) لشكسبير الى اللغة السواحلية ، وهو الذي قال : « فى خلال ثماني سنوات لم التجىء لمترجم الا مرة واحدة » .

وقد اكتسبت اللغة السواحلية اهميتها من عدة عوامل ، فهي منتشرة فى جزء كبير من افريقيا الشرقية ، وخاصة فى الكونغو الشرقي واوغندا الجنوبية وهي ايضا منتشرة فى كينيا ، فضلا عن انها اصبحت اللغة الرسمية فى تنزانيا ، وهي لغة تعبير عن جميع الاشياء والافكار ، وبفضلها استطاع موظفو الاتحاد الوطني الافريقي لطنجانيقا ان يتصلوا بالقاعدة الشعبية ، وان يقوموا بنشاطهم فى الاقاليم التي لا تكاد تعرف . يضاف الى ذلك ان اللغة السواحلية كانت دائما مقوما اساسيا للشخصية الوطنية لطنجانيقا ، واحدى خصائصها العميقة .

ومن المفيد ان نشير الى ان اللغة السواحلية ، حسب جميع القواعد ، بعيدة من ان تعتبر لغة «بدائية» ذلك أن ادبها الحي الشعري يرجع الى القرن السابع عشر ، ومن اجله وقع استعمال الكتابة العربية ، ولم يقتصر الامر على الكتابة ، فقد كانت تعرف ايضا من هذه اللغة ، واذا كان الرئيس نيريرى قد استطاع ترجمة « يوليوس قيصر » الى اللغة السواحلية فان هذه اللغة لا يمكن أن تكون صعبة للغاية ـ كما حاولت التايمس (Times) فى ملحقها الادبي سنة 1967 اظهار ذلك ـ مثلما يقال بالنسبة للغات افريقية اخرى. وهناك عقبات كبرى وضعت لحذف اللغة الانجليزية او الفرنسية لفائدة لغات محلية ، وحتى لو لم تكن هذه شائعة كاللغة السواحلية .

ونشير اخيرا الى ان وجود لغة وطنية افريقية واسعة الانتشار ، كاللغة السواحلية كان له تأثير كبير على القادة الافارقة الذين كانوا بصدد انشاء منظمة سياسية قوية .

وتلعب اللغة السواحلية فى اوغندا ـ التي استقلت سنة 1962 ، ويبلغ عدد سكانها 10 ملايين ـ دورا اقل اهمية من دورها فى تنزانيا ، فحتى سنة 1963 كان فى اوغندا عدد كبير من الاوغنديين يفهمون اللغة السواحلية فى مستوى قضاء حاجاتهم من السوق ، كما ان عددا اقل من ذلك يتكلم هذه اللغة بسهولة ، مع العلم بأنها تعلم فى المدارس الاوغندية خلال فترة التقارب بين البلدين ، وقبل أن يقع التخلي عنها فى سنوات 1930 . اما النقابات والاحزاب فكانت تستعمل الانجليزية فى اجتماعاتها ، وتترجم خطبها الى اللغة الاوغندية او السواحلية .

ويرجع ضعف اللغة السواحلية باوغندا لكون الطرق التجارية بها لم تكن قد تطورت بالقدر الذي حدث فى طنجانيقا ، وهناك سبب آخر اكثر اهمية وهو وجود قبيلة كبيرة وقوية كانت تتمسك باستعمال لغتها .

وبالرغم عن القرار الذي صادق عليه مجلس الشعب الاوغندي سنة 1962 بتقوية استعمال السواحلية لفائدة الوحدة بين الشعبين الاوغندي والتانزاني ، فان المسؤولين الاوغنديين ظلوا مستمرين فى استعمال لهجات قبلية فى برامجهم الاذاعية ، ولم يقتصروا على السواحلية .

وكان يبدو أن النخبة الاوغندية قد اختلفت فيما يرجع لمسألة اللغات ، واتضح هذا بمناسبة حوار جرى سنة 1962 حيث انتصر عدد من الشخصيات السامية ( ثلاثة منهم اصبحوا وزراء بعد ذلك ) لفائدة اللغة السواحلية ، وعلل احدهم وهو نكوبي موقفه بانه استحال عليه مدة عشرين عاما القاء خطب بالانجليزية امام الجماهير الشعبية ، بينما عارض سروانو الذي

اصبح فيما بعد الرئيس المساعد للمجلس ، ونديوب الذي اصبح نائب رئيس الدولة ، بصراحة فى استعمال السواحلية .

واخيرا ، فى سنة 1963 قرر الوزير الاول ميلتون اوبوت الاستعمال العال للغة السواحلية ، ولكن رئيس U.P.C. جوهن بابيها لم يكن متحمسا ، بينما اكد وكيل الدولة بأن الاوغنديين لن يقبلوا ابدا اللغة السواحلية .

فاذا انتقلنا الى كينيا ، وهي الدولة المجاورة لكل من اوغندا وطنجانيقا على ساحل المحيط الهندي، والتي نالت استقلالها سنة 1963 ، فسنجد انها تتوفر على سكان يتكلمون سواحلية « اهلية » فى الساحل ؛ كما كانت صورة مشوهة منها تستعمل منذ زمن طويل بين اصحاب الاعمال وعمالهم ، وهكذا قاومت اللغة السواحلية الجهود التي بذلها النظام الاستعماري لازالتها .

وقد اكد وزير الانباء الكيني السابق السيد اشيانك اونيكو سنة 1963 ، وهو من اكبر انصار السواحلية ، بأن حوالي نصف السكان يفهمون اللغة السواحلية .

ومن الجدير بالملاحظة ، كمثل على صعوبة اختيار لغة وطنية ، انه يوجد بكينيا 42 جماعة قبلية لعدد من السكان يبلغ احد عشر مليونا ، ولا يتجاوز عدد أكبر جماعة منها وهي كيكويو مليونا ونصف مليون ، ومن الوجهة القبلية تعتبر السواحلية الآخذة فى الانتشار بكينيا لغة « محايدة » ، لها حظوظ لتصبح لغة وطنية، ولكن الانجليزية حتى الآن لا تزال هي اللغة الرسمية والتربوية .

والارقام المنشورة فى الجدول التالي عن اللغات المستعملة فى صحف الدول الثلاث تؤكد أن السواحلية هي اللغة الوطنية لطنجانيقا ، وانها لغة مهمة فى كينيا، كما انها تستعمل الى حد ما فى أوغندا . وهذا التشابه اللغوي بين كينيا وطنجانيقا يوضح الفكرة التي اعلنها سنة 1963 عدد كبير من السياسيين ، والتي تؤكد ان الروابط بين الكينيين والطنجانيقيين اقوى منها بينهما وبين الاوغنديين .

**نسبة الصحف المنشورة بمختلف اللغات سنة 1962**

| | | السواحلية | الانجليزية | لغات محلية |
|---|---|---|---|---|
| طنجانيقا | صحف يومية | 70 | 30 | — |
| | صحف شهرية | 72 | 26 | 2 |
| كينيا | صحف يومية | 36 | 64 | — |
| | صحف شهرية | 46 | 41 | 13 |
| اوغندا | صحف يومية | — | 49 | 51 |
| | صحف شهرية | — | 7 | 93 |

## تجربة اللغة الاجنبية فى مدغشقر

واذا كانت مشكلة اللغة الاجنبية لا تبرز للعيان بحدة فى كثير من الدول الافريقية ، فلأنها غالبا ما تختفي خلف مشاكل التعليم التي تلتحم بها ، وهذه المشاكل نفسها كثيرا ما تندمج فى اطار المطالب الوطنية والسياسية العامة التي تتبناها المعارضة ، وتواجه بها الحكم القائم .

لقد حصلت مدغشقر ، البالغ عدد سكانها 6.750.000 ، على استقلالها سنة 1960 ، ومن الجدير بالملاحظة ان طلبة الجامعة وتلاميذ التعليم الثانوي الذين قاموا باضرابات ابريل ومايو 1972 التي شارك فيها السكان ، وهزت كيان الدولة ، وارغمت رئيس الجمهورية على تسليم سلطاته للجيش، هؤلاء الطلبة يمثلون الجيل الذي بدأ تعليمه فى المدرسة الملغاشية المتفرنسة فى عهد الاستقلال . وهذا

يعني ان هذا الجيل لم يندمج اجتماعيا ونفسيا وتربويا في هذه المدرسة الاجنبية ، ولم تتكامل شخصيته الوطنية بواسطة لغتها ومناهجها واطرها الاجنبية ، وعندما شعر بأنها لن تحقق اهدافه ومطامحه في التطور والتقدم ثار ضدها ، ووجد تجاوبا كاملا مع جميع المنظمات الملفاشية التي تطالب معه بتعليم وطني كشرط اساسي لاصلاح التعليم .

وفي وصف هذه الحالة عقب الاضرابات المذكورة يقول مراسل جريدة « لومند » الباريسية : « كانت مطالب الطلبة ذات اهمية ، ولكنها لا تخرج عن النطاق الطلابي ، ورغم ذلك فان الرئيس تسير انانا قد وصل الى حد اغلاق الجامعة في شهر مارس 1971 بعدما طالبته الجمعيات بتعليم وطني ، وتخفيف برامج الدراسات والامتحانات ، وقد اصبحت المساعدات الثقافية الفرنسية بكاملها معرضة للنقد من طرف المنظمات التي تدين التبعية الثقافية .

وبعد ان استعرض المراسل المذكور العوامل السياسية الاخرى التي تدعو اغلبية الشبان لاستنكار نظام الحكم الذي يعتبرونه شديد الارتباط بالاستعمار السابق ، اشار الى ان هذا لم يبد في الشعارات التي حملها الطلبة المتظاهرون يوم 24 ابريل الماضي حيث اكتفوا بشعارات كهذه : « معاهدات التعاون معاهدات استعباد » الفرنسية لغة الاستعباد » .

وقد جاء في تصريح ادلى به لجريدة «لومند» ريموند وليام ربمننجرا عضو الحركة الجمهورية الملفاشية الحرة ، بعد ان تولى الجيش جميع السلطات ، حول مستقبل هذه الجمهورية ما يلي : « اما فيما يتعلق بمصير اللغة والثقافة الفرنسية فان للملفاشيين كامل الحق في الدفاع عن لغتهم الاصلية ، وعن التراث الروحي والثقافي لاجدادهم ، ولكن من الواجب عليهم ايضا بالنظر للحاضر والمستقبل ، ان لا يعزلوا عن الفكر العالمي ، وداخل هذا النطاق ، سوف لا نفرط في كل ما هو فرنسي » .

هذا هو الموقف الصريح والعلني من قضية اللغة الاجنبية في بلد افريقي نام ، كان لا بد ان تمر اثنتا عشرة سنة على استقلاله قبل ان يلاحظ شعبه انعكاسات هذه التجربة المرة على حياته الاقتصادية والاجتماعية والقومية ، ويعلن سخطه وثورته ضدها.

ومن الجدير بالذكر انه عندما يطالب الطلبة في مدغشقر ، او في اي بلد افريقي آخر بتعليم وطني ، فهذا اولا وبالذات ، أن التعليم القائم ليس وطنيا طالما انه لا يعتمد على اللغة الوطنية التي هي شرط اساسي في نظرهم ليصبح التعليم عاما ، وديمقراطيا ، وفي خدمة المصالح القومية العليا للشعب كله ، ويتخلص من التبعية والسيطرة والتوجيه الاجنبي ، ذلك التوجيه الذي يحصر هدفه في تكوين عدد محدود من الاطر التي تحتاج اليها ادارة الدولة فقط .

## تجربة اللغة الاجنبية في الجزائر

وفي اطار النظام الاستعماري الذي عرفته الجزائر من 1830 الى 1962 ، والذي فقد معه الشعب الجزائري ارضه وسيادته وجميع ثرواته الوطنية ، جاءت اللغة الفرنسية الاجنبية لتحل محل اللغة الوطنية في الادارة والتعليم والحياة اليومية ، ولتسلب الشعب الجزائري ثقافته العربية الاسلامية، وشخصيته القومية ، حتى تسهل عملية ادماجه النهائي في الامبراطورية الفرنسية .

وفي سنة 1938 ، اي قبيل الحرب العالمية الثانية ، وبعد مرور اكثر من مائة عام على هذا النظام، كان يعتقد ان عملية الادماج هذه قد نجحت نهائيا ؛ عندما كتب زعيم وطني جزائري ، عضو في البرلمان الفرنسي يومئذ ، يتساءل بحسن نية : هل توجد حقا امة جزائرية ؟ .

وبعد اعلان حرب التحرير الجزائرية سنة 1954 من طرف الشعب الابي ، اكتشف هذا الزعيم فجاة ظهور هذه الامة التي كان يبحث عن لغتها وثقافتها وشخصيتها الوطنية دون جدوى ، فارتمى بين احضان الثورة ليصبح أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وفي سنة 1962 كان أول عمل للجمهورية الجزائرية المستقلة هو استعادة سيادتها المطلقة والكاملة على الارض والثروات الوطنية الجزائرية ، اما العمل الثاني الذي شرعت فيه فور انتهائها من المرحلة الاولى فهو استعادة اللغة والثقافة الوطنية ولم تكن هذه القضية تحتل اية مناقشة ، رغم الصعوبات التي كانت تكتنف تطبيقها ، ذلك ان كل تطور ونمو للشخصية الجزائرية ، ، وكل تعليم ، وكل ثقافة وطنية ، يستحيل قيامها بغير اللغة العربية ، لغة المدرسة الحرة الاسلامية الجزائرية ، باعثة النهضة ، وشعلة الثورة ، ولغة تحرير الانسان الجزائري من العبودية والجهل والاستغلال .

لقد استفادت الجزائر منذ استقلالها سنة 1962 من تجربة المغرب السابقة في سياسة التعليم والتعريب منذ استقلاله سنة 1956 ، واستطاعت بفضل وضوح رؤيتها ، وبعد نظرها ، وعمق تجربتها ومحنتها في عهد الاحتلال ، ان تتجنب الاخطاء التي وقع فيها غيرها ، وان تقرر جعل اللغة العربية أداة علم وعمل في جميع قطاعات النشاط الوطني ، وادخالها الى الميادين العلمية والثقافية ، وخلق مدرسة جزائرية ذات صبغة قومية .

وقد تحدث الرئيس الجزائري هواري بومدين يوم 28 ابريل 1970 امام اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم عن التعريب بوصفه اختيارا اساسيا لا رجوع فيه ، فاكد بانه مطلب وطني ، وهدف من الاهداف الكبرى بالنسبة للجماهير ، وقال : انه توجد بالجزائر نخبة وشعب وفي مثل هذه الحالة يجب على النخبة ان ترجع للشعب خاصة بالنسبة لهذا الموضوع ، لان الشعب هو الذي احتضن عبر القرون كل ما يمثل عنصرا اساسيا لما نسميه اليوم « بمقومات الشخصية الوطنية » .

وبهذا القرار التاريخي الحاسم ، فتحت الجزائر الباب على مصراعيه لتطبيق مبدأ تعميم التعليم ، ودمقراطيته ، ومحاربة الامية ، وتكوين الاطر الوطنية ، وخلق الوعي لدى الجماهير الشعبية باهمية التدابير المتخذة في سياسة التصنيع ، والتطور الاقتصادي ، والاجتماعي ، والاصلاح الزراعي .

## تجربة اللغة الاجنبية في المغرب

ومنذ استقلال المغرب سنة 1956 حتى اليوم، لم يحدث ان اجمعت الاحزاب الوطنية ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والمؤسسات العلمية والثقافية والدينية على مبدأ وطني مثل اجماعها على ضرورة استعمال اللغة العربية في التعليم والادارة والحياة اليومية بدل اللغة الفرنسية التي فرضتها الحماية في عهدها السابق .

ففي 13 ابريل 1964 قامت وزارة التعليم بتجربة عندما نظمت مناظره وطنية كبرى حول التعليم دعت لها 400 شخص يمثلون جميع المؤسسات الحكومية والشعبية لوضع سياسة وطنية قسارة للتعليم ، وكانت نقطة الصراع الوحيدة والمغطاة بمشاكل التعليم ، هي التي جاءت في هذه التوصية التي كانت محل اجماع اعضاء المناظرة ، وانتصر فيها ممثلو المؤسسات الوطنية الشعبية انتصارا ساحقا :

« لغة التعليم هي اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، ويشرع في تعليم اللغات الاجنبية ابتداء من الطور الثانوي » .

وبعد مصادقة الجمع العام للمناظرة ( 400 ممثل ) على هذه التوصية الصادرة عن « لجنة السياسة العامة للتعليم » تمكنت اللجان العشر الاخرى – بعد اسبوعين من العمل الجاد ليلا ونهارا – من اصدار توصياتها المتعلقة بالسياسة الوطنية العامة للتعليم .

وقد انعقدت مناظرة اخرى في افران للبحث عن اسباب الاضرابات ومحاولة ايجاد حل لها واصدر المثقفون المغاربة بيانا تاريخيا وقعه 500 من الشخصيات المغربية في طليعتهم كبار العلماء ، وقادة الاحزاب الوطنية ، ونقابات العمال ، واتحادات الطلاب والاساتذة والمثقفون .

ومما جاء في هذا البيان ان الشعب المغربي لا يريد بعد تحرره واستقلاله ان يظل مربوطا بعجلة اية دولة اجنبية ، ويظل فكره القومي محتكرا للفتها ، وانما يريد ان يستوعب الحضارة الانسانية العالمية بمختلف لغاتها الحية ، وعن طريق التبادل الثقافي والعملي والصناعي ، دون ان يتخلى قيد انملة عن لغته العربية ، كلغة رسمية حية ، في التعليم والادارة والعمل اليومي ، فان علماء المغرب ومثقفيه ، ورجال الفكر والاصلاح فيه ، يرون من واجبهم القومي والديني بمناسبة الحوار المفتوح حول سياسة التعليم ومستقبله في المغرب :

اولا – ان يجددوا نصحهم وتحذيرهم من اية سياسة لم تحقق غير المزيد من فرنسة الاجيال المغربية الناشئة ، وفرنسة لغة التخاطب العامية ، وترشيح فرنسة الادارة والمصالح العمومية والخصوصية بالمغرب المستقل ، مما يهدد وحدة وكيان ومستقبل الشعب المغربي ، ويعرقل تقدمه وازدهاره وامنه الفكري .

ثانيا – ان يذكروا بأن التعريب الكامل العام ، في التعليم والادارة والعمل والشارع هو مطلب قومي

اجمعت عليه الامة منذ الاستقلال ، وهو لا يتعارض بحال من الاحوال مع دراسة اللغات الاجنبية الحية كلغات ، ولا يتناقض مع رغبتنا جميعا في التفتح على حضارة القرن العشرين ، وانما يؤكد فقط رغبة الشعب المغربي في المحافظة على مقومات شخصيته الوطنية ، ومن المعلوم انه لا يمكن لهذه الشخصية ان تنمو وتزدهر الا في اطار اللغة القومية ، ولا يمكن للتعليم ان يصبح شعبيا ودمقراطيا ومزدهرا الا باللغة القومية .

ثالثا ـ ان ينبهوا الى التجني الذي يرتكب في حق اللغة العربية عندما يراد ربطها بالوضع الذي يوجد عليه العالم العربي اليوم ، وبالنقص الذي يلاحظ في المصطلحات العلمية الحديثة ، مع انه لا ينكر احد ان اللغة العربية كانت هي اللغة العلمية العالمية الوحيدة في العصور الاسلامية الزاهرة ( القرون الوسطى في اوربا ) ، وان تخلفها اليوم في ميدان المصطلحات الحديثة لا يرجع لعجزها هي ، بل لجمود المجتمعات العربية التي عليها أن تقوم بسد هذا النقص في الميدان اللغوي ، في نفس الوقت الذي تعمل فيه على سد نقصها في الميادين العلمية والصناعية ، ذلك ان اللغة العربية ، ككل اللغات الحية ، لا يمكن أن تتطور وتتقدم بمعزل عن الحياة والعلم والمجتمع ، وابعادها عن ان تكون لغة التعليم والادارة والعمل ، هي الطريق المفضية بها الى الموت البطيء ، لا الى الحياة الخالدة .

**اسباب المحافظة على اللغات الاجنبية بافريقيا :**

1 ـ ان اغلب المسؤولين والمشرفين على سياسة التخطيط يجهلون هم انفسهم لغتهم الوطنية ، لانهم تعلموا باللغة الاجنبية التي لا يزال نفوذها مستمرا بالرغم عن استقلال بلدانهم ، وحيث انهم عاشوا في هذا الوضع ، واندمجوا فيه اداريا فهم يخشون أي تغيير قد يمس مصالحهم بسوء .

2 ـ ان عودة اللغة الوطنية لاحتلال مركزها الطبيعي كلغة رسمية للدولة سيؤدي حسبما يزعمه هؤلاء الى خلل في سير الادارة ، والى انخفاض المستوى في التعليم والتكوين ، والى عزل الشعب عن تيارات حضارة القرن العشرين . والواقع ان الخلل الاداري ، وانخفاض المستوى ، هما بعض ما تعانيه هذه البلدان ، بالرغم عن استعمال اللغة الاجنبية ، لانها نتيجة لسلوك الرجل ومستوى معرفته ، وليسا نتيجة للغته ، أما دعوى عزل الشعب عن تيارات الحضارة العالمية ، فهي مجرد خداع وتضليل للرأي العام الوطني .

3 ـ ان السكان يتسابقون ، حسب زعم هؤلاء ايضا ، لتسجيل ابنائهم في مدارس البعثات الاجنبية ، حرصا منهم على أن يتعلموا بلغتها ، والحقيقة هي أن طبقة من السكان المترفين اذا كانت تفر من مدارس الدولة الرسمية ـ وهذا لا يشرف اية حكومة بهذا الوضع ـ فليس ذلك لتعلقها أكثر باللغة الاجنبية ، ولكن لانها تخشى المصير التعس الذي ينتظر ابناء الشعب الذين يغادرون المدرسة دون ان يحصلوا حتى على شهادة الثانوية العامة .

4 ـ ان استعمال اللغة الاجنبية أصبح مرتبطا بالمصالح الاقتصادية والثقافية والسياسية للدولة صاحبة هذه اللغة ، وبمساعداتها المختلفة للدولة التي تستعمل لغتها ، ومن شأن التحول الى اللغة الوطنية ، حسبما يعتقده هؤلاء ، ان يسيء الى علاقات الدولتين ، والى مصالح المنتفعين فيهما ، وليس من شأن دولة غير ثورية أن تقوم على مثل هذه الخطوة الجريئة .

5 ـ ان استعمال اللغة الاجنبية قد يكون ـ فضلا عن الاسباب السابقة ـ لمجرد الحاجة ، لان الدولة المعنية لا تملك لغة علمية مكتوبة ، او بسبب الضغط الاستعماري المتواصل ، او فقط عبارة عن اختيار سياسي لتحقيق اهداف سياسة معينة ، قلما يقع الانتباه لها . أو لان النخبة الحاكمة لا تزال تشعر بالنقص تجاه المستعمر القديم وتجاه لغته ، فهي لا تجرؤ على المس بالمؤسسات التي خلفها ، وكثيرا ما تجتمع اغلب هذه العوامل في البلد الواحد .

هذه ، على الاقل ، خلاصة الاسباب التي تجعل اغلبية الدول الافريقية تتبنى اللغات الاجنبية ، دون ادراك واع منها بأن هذا التبني يشكل عقبة كبرى في طريق نمو شعوبها ، وتقدمها ، واستغلال طاقاتها البشرية .

**الافارقة سيتخلصون عاجلا او آجلا من اللغات الاجنبية :**

وهناك شعور متزايد لدى الرأي العام ، ولدى المؤسسات الوطنية في الاقطار الافريقية بأن الدول الغربية المستعمرة السابقة لها ، كانت تهتم بنشر

لغاتها فى هذه البلدان ، أكثر مما تهتم بتطورهـا أو نشر التعليم فيها ، وهذا الشعور تؤكده حتى اليوم الدراسات والمجلات التي تعني بهذا الموضوع .

ان تجارب الشعوب الافريقية مـع اللغـات الاجنبية اكدت بأن تبني هذه اللغة أو تلـك من طرف نخبة قليلة من شعب افريقي لا يعني حصول هـذا الشعب على تقدم أو تطور بفضلهـا ، فالشعـب الجزائري ، مثلا ، الذي استمرت عملية فرنسته خلال 132 سنة من الاستعمار ، كان قد وصل اقصى درجة من الفقر والجهل والانحطاط قبل قيام ثورته المعجزة سنة 1954 ، وتجربة الشعوب الافريقيـة بعـد الاستقلال ، سواء منها التي ورثت اللغة الانجليزية او الفرنسية ، جعلتها تزداد اقتناعا بأن استعمال هذه اللغات لن يحل مشاكلها ، بل ربما خلـق مشاكـل جديدة لم تكن فى الحساب ، ولذلك فان الشعـور الوطني العام يسير نحو التخلص من هذه اللغات التي اقترن تاريخها بالعبودية والاستغلال الاقتصادي .

ان هذا الاتجاه قد ادركه بذكاء المفتش العام للتعليم فى فرنسا طابو « R. Thabault » الـذي كان آخر مدير للتعليم فى المغرب عندمـا قال : « .. كيفما كان سبب تبني الافارقة للفرنسية ، سواء كان اختيارا ، أو مجاملة ، أو مصلحة ، أو ضرورة ، فان هذا لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة تكاد تكـون مجهولة فى فرنسا ، وهي انه مهما كانت الصعوبات وعدم الملاءمة مع المشروعات ، فان الافارقة لهـم رغبة جامحة فى أن تكون لهم لغة خاصة بهم ، لغـة افريقية مشتركة تعوض الفرنسية ، وفى الحقيقـة فان التحول الى الاستقلال قلل من حدة هذه المشكلة، بيد ان الجذور الاحساسية والعاطفية لهذه الرغبـة عميقة جدا ، وتوشك المشكلة ان توضع بقوة مـن جديد فى المستقبل » .

ونفس الفكـرة عبـر عنهـا بييـر بورنـي (Pierre Burney) بالنسبة لدول المغـرب العربي عندما قال : «كيفما كانت الاسباب التي حددت اختيار الفرنسية كلغة ثانية ، سواء التقاليـد ، أو السهولة ، أو المصلحة ، أو المجاملة ، فان تعريبـا تدريجيا للتعليم سيتم حتما » .

وقد لاحظ نفس الاتجاه فى افريقيا الجنوبيـة الاساتذة لووكرانت ووليامس السابق ذكرهم قائلين: « .. ومع ذلك فانه يلاحظ فى افريقيا الجنوبية انه يقع الالحاح بقوة على التعليم باللغة المحلية أكثر من الانجليزية ، وهذا يعني ان التربية البانتوية ( لغـة البانتو ) لا تعني فقط تلقين مواد ولكن أيضا وجـود لغـة معبـرة » .

وعندما انعقد الملتقى الجامعي الاول حـول الوحدة الافريقية بالجزائر فى نهاية مارس 1971 ، اكد ما سجله الجميع على البيئة التربوية القائمة فى القارة الافريقية المستقلة ، التي تتميـز بظاهـرة الاستلاب الثقافي ، أو التبعية الثقافية . وهـذه التبعية جعلت أغلب المثقفين الافارقة لا يقـدرون ثقافتهم الوطنية ، ولا يشعرون بالدور الذي يمكن ان تلعبه هذه الثقافة ، وانعزالهم عن شعورهم لم يكـن نتيجة لأفكارهم الجديدة فقط ، بل لانهم أيضا أصبحوا يتحدثون بلغة تختلف عن لغة شعوبهم » .

هذا الموقف الافريقي من اللغات الاجنبية الذي ادركه بوعي وتجربة خبراء أجانب فى شؤون التعليم واللغات بافريقيا كالاستاذين طابو وبورني فى سنـة 1962 ، جاءت اضرابات الطلبة والتلاميذ لتؤكده بقوة فى شعاراتها ضد التبعية الثقافية وسيطرة اللغـة الفرنسية،بينما غاب هذا الادراك عن بعض السياسيين والمسؤولين الافارقة أنفسهم .

## خـــلاصـــــة :

ان تعلم اللغات الاجنبية وخاصة الانجليزيـة والفرنسية بالنسبة للطبقة الاجتماعية المتعلقة بالقارة الافريقية ، هو مطمح كل متعلم دون جدال ، ووسيلة ضرورية لاغناء الثقافات الوطنية ، وتكوين الاطـر العلمية والتقنية الوطنية فى سائر المجالات ، وتيسير التبادل العلمي والثقافي مع شعوب العالم المتقدم ، هذه هي الحقيقة الاولى التي لا يجادل فيها أحد .

ولكن اسلوب التعليم الذي فرضه الاستعمـار الغربي على شعوب القارة ، كان يهدف بالدرجة الاولى الى نشر لغة الدولة المحتلة ، وفرضها كلغة رسمية فى الادارة والتعليم ، وقد تبين لهذه الشعوب ، بعد التجربة المرة ، انه اسلوب خطير ، وان أقل اخطاره القضاء على الشخصية الوطنية ، وعلى الثقافة والقيم التاريخية والدينية ، وعرقلة كل تقدم وازدهار حقيقي للشعب ، واخضاعه باستمرار لتبعية الدولة التـي يفكر ويتكلم بلغتها ، وهذه هي الحقيقة الثانية التي بدأت هذه الشعوب تدركها .

ومن خلال التجارب الافريقية اتسعت المعرفة، وازداد اليقين بحقيقة علمية ، وهي أن الاطفال الذين يدرسون بلغة أجنبية ، تختلف عن لغة الاموم ـ وخاصة أصحاب الذكاء العادي وهم الاغلبية الساحقة ـ لا يتقدمون فى دراساتهم الا ببطء ويشتد هذا البطء اذا فرض عليهم التعلم باللغة الاجنبية ، وباللغة الفصحى الام للغة الاومة ، او بلغتين أجنبيتين عن لغة الاومة وهذه هي الحقيقة الثالثة .

وقد برهنت الحركات التقدمية او الثورية التي تغلغلت فى القارة الافريقية على ان دوافعها الاساسية لا تخرج عن النطاق الوطني الذي يستهدف النمو وتقدم الانسان الافريقي ، وتحريره من كل انواع العبودية واعتناق بعض الحركات للشيوعية نفسه ليس اجتهادا فكريا متأثرا بالدعاية الاجنبية ، بقدر ما هو عبارة عن رد فعل اجتماعي قوي للتحالف مع اية قوة خارجية ضد الحكم الذي لا يخدم مصالح الشعب ، وما دام هذا الحكم يؤثر عليها مصالح المستعمر السابق ، ويدعم لغته وثقافته على حساب اللغة والثقافة الوطنية ، فان التيار العام ، وخاصة لدى الطبقة المتعلمة ـ سيزداد اتساعا وعنفا ضد هذه السياسة وضد أصحابها ، وسيعمل على التخلص من هذه اللغات فى التعليم والادارة عاجلا او آجلا ، وهذه هي الحقيقة الرابعة التي نستخلصها فى النهاية من هذا العرض .

**ألقاب الصوفية فى المشرق :**

الاولى : المجلس العالي يكتب بها لشيخ الشيوخ بالديار المصرية وهي المجلس العالي الشيخي الكبيري العالي العاملي السالكي الخ ..

المرتبة الثانية : المجلس الساميتي ( بالياء )

المرتبة الثالثة : المجلس السامري ( بغير ياء )

المرتبة الرابعة : مجلس الشيخ ( صبح الاعشى ج 11 ص 85 )

# تنقل الألفاظ

الأستاذ عبد الهادي الفضلي
كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز

قد تعد ظاهرة تنقل الالفاظ من ابرز الظواهر اللغوية الاجتماعية لشيوعها بين مختلف اللغات ، وبخاصة اللغات الحية منها ، وفي كثير من المجتمعات ، وفي شتى انماط لغاتها من فصيحة وعامية .

وهي : تعني تنقل الكلمة من لغتها الاصل الى اكثر من لغة ، ومن مجتمعها الأم الى أكثر من مجتمع .

وتنشأ تلقائيا كأي ظاهرة اجتماعية اخرى ، وذلك بسبب الاتصال الحضاري عن طريق الترجمات ونقل المعارف وبسبب الاتصال الاجتماعي عن طريق الاسفار والهجرة .

ويفاد من دراستها وبحثها في التعرف على تاريخ الكلمة في نشأتها وتطورها وتغيرات هيئتها وتقلبات مضمونها .

وقد توفرت جملة من معجمات بعض اللغات على التعريف بها كالانكليزية في مثل Webster's (International Dictionary وكالفارسية في ( فرهنك نفيسي ) .. غير انا لا نجد مثل هذه المعجمات في اللغة العربية مع توفر جملة من معجماتها على التعريف بالدخيل أمثال : معرب الجواليقي ومغرب المطرزي وشفاء الخفاجي والالفاظ الفارسية المعربة لادي شير الكلداني ، وتوفرت جملة اخرى منها على التعريف بالكلمات العربية التي استعجمت كقاموس دوزي المستشرق الهولندي الذي جمع فيه المفردات العربية التي دخلت الاسبانية والبرتغالية و ( الكلمات العربية في اللغة البرتغالية ) لجورج ليان و ( الكلمات العربية الشائعة في اللغة الانكليزية ) لجرجيس فتح الله المنشورة بمجلة المجمع العلمي العراقي .

والفرق بين ظاهرة الاستعجام - واعني بها دخول الكلمة العربية الى اللغات الاخرى - وظاهرة الاستعراب - وهي دخول الكلمة غير العربية الى العربية - وبين ظاهرة التنقل في مجال الدراسة والبحث ومجال التدوين المعجمي واضح لا يتطلب فيما اعتقد اي شي من التوضيح .

والفرق في مجال الاستثمار الدراسي هو المهم هنا - فيما اخال - ذلك ان دراسة الدخيل لا تكشف لنا في الغالب الا عن مجال من مجالات الكلمة قبل دخولها العربية قد يكون الاصل وقد يكون غيره . ودراسة الاستعجام هي الاخرى قد لا توقفنا على اكثر من مجال دخلته الكلمة العربية .

اما فى دراسة تنقل الالفاظ فمجالات الافادة كثيرة ، منها ما المحت اليه اعلاه ، ومنها الكشف عن قابلية الاستيعاب فى لغتنا وقوة الهضم والتمثيل وسعة التفاعل مع اللغات الاخرى اخذا وعطاء مما يجعلها مرتفعة الى مصاف اللغات الحية المرنة ، التى اكتسبت صفة التقدم نتيجة التاثير والتاثر والتبادل اخذا وعطاء .

ولعلنا فى ضوء ما نراه من توسع كبير فى الدراسات اللغوية المقارنة يجعلنا نتوقع صدور مثل هذا المعجم الذى يعنى بتاريخ الكلمة العربية المستعربة او المعربة عن قريب باذن الله تعالى .

وكامثلة اضع بين يدي القاريء الكريم اضمامة صغيرة من الكلمات المعربة المتنقلة التى افدتها من بعض المعاجم الانكليزية وبخاصة المعجم المذكور اعلاه ، وبمساعدة زميلي السيد جورج يول George Yule استاذ اللغة الانكليزية بكلية الآداب ـ جامعة الملك عبد العزيز الذى يسر لي كثيرا مهمة الرجوع الى المعاجم الانكليزية . والكلمات هي :

1 ـ موسيقى Music ـ اليونانية . اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

2 ـ مغناطيس Magnat ـ اليونانية . اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

3 ـ كريستال Crystal ـ اليونانية . اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

4 ـ نرجس Narcissus ـ اليونانية . اللاتينية . الانكليزية . الفارسية . العربية .

5 ـ بوليس Police ـ اليونانية . اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . الفارسية . العربية .

6 ـ كلية College ـ اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

7 ـ بروفسور Professor ـ اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

8 ـ ليمون Lemon ـ اللاتينية. الفرنسية. الانكليزية . العربية . الفارسية .

9 ـ صراط Street ـ اللاتينية . الالمانية القديمة . الانكليزية القديمة . العربية القديمة .

10 ـ امبراطور Emperor ـ اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .

11 ـ بنك Bank ـ الايطالية القديمة . الفرنسية . الانكليزية . الفارسية . العربية .

12 ـ كاش Cash ـ اللاتينية. الايطالية. الانكليزية . العربية .

13 ـ بلاتين Platinum ـ الاسبانية . الانكليزية . العربية

14 ـ ماركة Mark ـ الالمانية . الانكليزية . العربية .

وكنموذج تطبيقي ناخذ مثالا واحدا من الكلمات المعربات المتنقلة ، هو كلمة ( كعك Cake) المعربة عن الفارسية ، وهي من المعرب القديم الذى يمتد فى تاريخه الى اوائل العصر العباسي .

فاننا عندما نرجع الى تاريخها فى لفظها الانكليزي ( كيك Cake) نجد انها انتقلت من اللغة النرويجية القديمة الى اللغة الالمانية القديمة ، ومن الالمانية القديمة انتقلت الى اللغة الانكليزية ، ومن الانكليزية انتقلت الى العربية بلفظها الانكليزي (Cake) وراحت تستعمل الى جانب لفظها السابق المعرب عن الفارسية (كعك) وفى معنى آخر يشبه معناها السابق .

وهذا الاختلاف جاءها ـ فيما اخال ـ من انها سلكت فى دخولها الى اللغة العربية طريقين : طريق الفارسية قديما وطريق الانكليزية حديثا ، واخضعت فى اولهما الى اصول التعريب فتحولت الى ( كعك ) ، بينما لم تخضع فى ثانيهما الى تلكم الاصول فبقيت على لفظها الأعجمي ( كيك ) ، وربما عاد ذلك الى التفرقة بين معنيي استعمالها والى ضعف الالتزام باصول التعريب .

وفى ختام حديثي هذا اعود فاقول : ان هذه الظاهرة تتطلب كثيرا من العناية فى دراساتنا اللغوية وبخاصة المعجمية منها لما ستلقيه من الاضواء على الكثير من المسائل والقضايا اللغوية بمختلف حقول اللغة وفروعها .

# مظاهر التعريب

الأستاذ محمد بن تاويت

كثيرا ما قلنا ان التعريب كان منصبا على الالفاظ ، بينما التعريب الآن منصب على المعاني

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان العربي ، كان اذا جلب كلمة او جلبت اليه ، يستغني بالباسها لباسه العربي ولو بغطاء الراس مثلا او الحذاء

جاءته كلمة « كروان » بمعنى القافلة ، فقال فيها قروان ، وغطى راسها بالالف واللام فاصبحت القروان او القيروان ، وبذلك صارت الكلمة تتمتع بكل الحقوق التى تتمتع بها الكلمة العربية فى اعرابها ، فلا تمنع من الصرف لعلة العجمة ، لانها قد ارتفعت عنها بهذا العقال ، الذى هو هنا الالف واللام ، كما حدث فى الهند والصين والروم والترك.

سمع النبي عليه الصلاة والسلام ، من سلمان الفارسي ، كلمة خندق فاستفسره عن معناها، وهي اسم مفعول ، من كندن الفارسي بمعنى الحفر ، فكانت كنده ، وعربت بان ابدلت الهاء التى لا تنطق قافا ، فصارت خندق ، فتقبلها النبي ولم يأنف من استعمالها بل اشتق منها خندقوا ، فسميت الغزوة بغزوة الخندق .

ولعل الكاف كانت فى النطق تميل الى الخاء ، كما هي فى اليونانية والعبرية ، وهي ما تسمى عند مقرئي المغرب بالكاف المسوس ، ولهذا نطقت خندق.

أما ابدال تلك الهاء « المخفي » كما يسميها الفرس ، قافا ، فذلك ما كان مطردا فى العربية ، كما كان مطردا ايضا ابدالها جيما ، كما فى كلمة «برنامه» التى اصبحت برنامج ، وقد عقد سيبويه فى كتابه فصلا سماه « باب اطراد الابدال فى الفارسية » فذكر من هذا كوسه وموزه وكربق وقربق ، الى غير ذلك من الكلمات ، التى يكتفي فيها بهذا الحذاء العربي فى نهايتها ، اعني الجيم او القاف .

وطبعا انهم لا يقبلون الحروف التى لا يستعملونها ولا يألفون اجراسها ، فالحرف P ينقلب باء او فاء ، والحرف G ينقلب جيما غالبا ، والحرف V ينقلب واوا فى الغالب كذلك .

وبعد هذا لابد من انسجام فى الهيئة والامتداد، فتبدل بعض الحركات بغيرها او تحذف بعض الحروف التى تتعدى الكلمة طورها فى العربية ، ان لم تحذف منها تلك الحروف ، فى الغالب ايضا ، ولم يتحملوا هذا للاضطرار ، بل اخذوا كلمة «جلاب» وهي ماء الورد .

وهكذا كانت مشكلة التعريب فى القديم ، مسألة التعليم بمدلولنا ، ولم تكن مشكلة التعريب كما فهمنا ، فالقضية تهذيب لفظي بوسائل فى غاية البساطة .

لما ترجمت العلوم الى العربية ، اتخذ فيها ما كان معهودا من ذي قبل ، فقيل ، فلسفة فى

Philosophia وفيلسوف Philosophos وقيل ، قاطيفورية Kategoria والسفسطة Sofisikae وايساغوجي Isagoge وغير ذلك من الكلمات اليونانية الاصل ، ولم تجد العربية الفسيحة الصدر فى هذا حرجا او احراجا ، وقد وجدنا الابهري من رجال القرن السابع يؤلف فى المنطق رسالته « ايساغوجي »

| | |
|---|---|
| كما عربوا الطوس من | Taos |
| والزنار من | Zone |
| والقزدير من | Kassitoros |
| والابريز من | Ibrizón |
| وابليس من | Diáblos |
| والترياق من | Thériaka |
| والقرطاس من | Chartés |
| والجنس من | Genos |
| والاثير من | Esthlós |
| والاجرومية من | Gramaatika |
| والزفت من | Asfaltos |
| والقرنفل من | Karyofyllon |
| والجبص من | Gypsos |
| واصطفلينة من | Staflinos |
| والاسطول من | Sotolos |
| واسطرلاب من | Astron-lambauo |
| والدرهم من | Drachmé |
| والقادوس من | Kados |
| والاطلس من | Atlas |

ولا شك ان كلمات من هذه عرفتها الجاهلية ، كالقرنفل والدرهم وابليس ، ولكن معظمها لم يعرف الا عند الترجمة ، ولا يعزب عن البال ، ان كلمة الاجرومية ، ليست منسوبة الى ابن آجروم المغربي، كما يتوهم ، فان القضية اتفاقية ، وكثيرا ما يقع هذا الاتفاق فى اللغات .

هذه امثلة بسيطة ، اذا كانت الحياة على نمط من البساطة ، اما الآن فقد تعقدت الحياة وتعاقبت المخترعات وازدحمت فى هذه الدنيا المخلوقات ، فاصبحت وكأنها دار تسكنها عائلة واحدة ، لابد من التعارف التام فيها والاتحاد فى مدلولاتها ومزاولة كل فرد منها ما يزاوله الآخر

فصارت مسؤولية اللغة شاقة ومتطلباتها كثيرة ، وعليها ان تقوم بأعباء ذلك وعليها ان تستنفد كل ما فى طاقتها من قوة فهل العربية قادرة على هذا ؟

نعم ، هي قادرة ، لو مكناها من قدرتها ، ونفسها بطول الانفاس ، ان لم نكبته فيها .

والعربية ، الى جانب احتمالها للالفاظ ، تحتمل كذلك ما نطلبه من معان فيها ، ان كلماتها لا تنفد ، بما فيها من اشتقاق وخيالها بحمد الله خيال خصب ، يسعفها بالتشبيه وما ينشأ عنه من استعارات ، ويسعفها بهذا التداعي الذى تتولد منه الكنايات ، ولا يبخل عليها استعمالها العتيق ، بهذه المجازات المرسلة ، ثم النحت .

لقد تقدمت فى الاشتقاق ، كلمة « خندقوا » من الخندق ، ولنا أن نزيد على هذه الصيغة كل الصيغ المعروفة فى المادة العربية نفسها ، فتسعفنا فى الافعال بأنواعها واوضاعها ، وتسعفنا فى الصفات بأنواعها كذلك واوضاعها ، وتسعفنا فى اسماء الزمان والمكان والمصادر على اختلافها ، كما تسعفنا الكلمة العربية ، عند الاحتياج الى نسلها من اولاد واحفاد

هذا الاشتقاق الطليق، لا نجده فى غير العربية ونجد امثلة من البواقي فى غيرها ، مثل ما نجد فى الفارسية والتركية والفرنسية ، ازاء البطاطا ، حيث شبهتها جميعا بالتفاح الذى اضافته الى الارض ، فقالت الفارسية « سيب زمين » والتركية « ير الماسي » والفرنسيةPomme de terre

وسمت الاسبانية ملابس العمال ، ذات القطعة الواحدة « Mono » اي قرد ، كما سمت الآلة التى ترفع بها جوانب السيارة باسم « Gato » اي الهر ، لانها تنشب مخلبها فى جانب السيارة ولم تأنف ان تسمى بالبق « Chinche » المسيمرات التى تثبت الورق ونحوه .

وقالت الانجليزية للقطار السائر تحت الارض Underground اي تحت الارض ، مجازا مرسلا، كما استعمل هذا المجاز المرسل فى نحو «سندويتش» « Sanduich » و«كرافاط» « Cravate » وكان الاصل فى هذين انهما اسمان لرجلين استعملاهما .

وأمعن الالمان ، كما نمعن نحن فى الاشياء لنستخرج اسماءها ، بدقة وطبق الاصل ، فسموا « الهيدروجين » باسم Wasserstoff

فركبوا الاسم من كلمتين Stoff اي جوهر ، و Wasser اي ماء ، فصار الاسم هكذا ، الجوهر المائي ، او جوهر الماء ( كما في الفارسية والتركية مولد الماء )

وقد كلفهم هذا الاعتزاز كثيراً من العنت . اضطروا معه ، الى تركيب اسم لمسمى واحد من كلمتين او كلمات ، في بعض الاحيان ، فلا يكتفون غالبا بالنحت ، الذي نجده في جل اللغات ، ومنها العربية .

وقبل ان نأتي بأمثلة من العربية لهذا النحت . نرى ان نقف وقفة قصيرة ، عند اصله اللغوي ..

فالنحت اصله ، النشر والقشر والقطع في الصلب من المواد ، كالخشب والحجر ونحوهما . وقد يكون هذا من قطعتين ، كما ينحت النجار ، خشبتين ويجعلهما قطعة واحدة ، كما يكون من قطعة واحدة ، وهو الاصل ، كالنحيتة التي تنحت من جذم شجرة ، على هيئة الجب للنحل ، وهذه النحيتة هي المعروفة عندنا باسم الجباح ، ومن هذا قول الاعشى :

لست منتهيا عن نحت أثلتنا
ولست ضائرها ما اطت الابل

اما النحت في الحجر ، فمنه قوله تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين »

هذا ما يتعلق ، باصل المادة من اللغة .

واما معنى النحت في الاصطلاح ، فهو صوغ كلمة من كلمتين فاكثر .

ويدخل في هذا التعريف ، تركيب كلمة من كلمتين ، مما تناوله النحاة ، في عدة ابواب من كتبهم . وفي الالفية نجد التعرض للتركيب المزجي، في باب العلم، وباب ما لا ينصرف ، وباب النسب ، كما نجد الاشارة الى المركبات عامة في ابواب غير هذه .

وجملة القول ان النحو تعرض للمركبات من الاسماء الا ان تعرضه هذا كان لمجرد الاحكام النحوية والصرفية الواجب تطبيقها عليها في الجملة .

نعم ان « الكتاب » لسيبويه لم يقف عند تطبيق الاحكام ، بل وقف عدة وقفات، كان منها ما يتصل بالوصف ، وتسجيل خطوات اللغة . وموقفها من طبيعة الاشياء ، فكان منها بعض اللمحات عن موضوعنا هذا ، مثل « باب الحكاية التي لا تغير فيها الاسماء عن حالها » فالتركيب اذن معروف بين كلمتين عند النحاة ، قديما وحديثا .

اما النحت بهذا الاسم فقليلا ما يتعرض له النحويون . ومن هؤلاء الخضري ، اذ يقول فيه « وهو ان يختصر من كلمتين فاكثر ، كلمة واحدة، ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الاولى بتمامها بالاستقراء ، خلافا لبعضهم ، ولا الاخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات » .

وبهذا نعمم كلمة النحت في تركيب الكلمة من كلمتين وفي اختصار كلمة من كلمتين او اكثر ، والنوعان معا موجودان في العربية ، وفي جل اللغات غيرها ، وان كان بعض منها يميل الى التركيب اكثر مما يميل الى الاختصار ، على عكس العربية . كما سنرى :

تقول العربية « البسملة » و « الحمدلة » و « السبحلة » و « الحوقلة » و « السمعلة » ، من قولنا : « بسم الله » و « الحمد لله » و «سبحان الله » « ولا حول ولا قوة الا بالله » و «السلام عليكم » ، كما تقول « الهيللة » و « الحيعلة » . ويزعم ابن فارس ان كل ما زاد على ثلاثة ففيه نحت ونقول « التحبيذ » كما نقول غير هذا من جمل عديدة ، ونشتق من ذلك الافعال وغيرها مما يشتق من كل مصدر ، وهذا ايضا مما تمتاز به العربية وتفضل على غيرها ، فان باقي اللغات ، تستعمل هذا النحت في حالة معينة ، تستوجب منها هذه العملية ، وتقف عند هذا الحد ولا تتعداه غالبا فهي في ذلك تلتزم ما التزم — غالبا — في اسماء الافعال والاصوات من العربية ، وهذا الباب ايضا ، مما توسعت فيه العربية ، بخلاف غيرها .

مثلا ، نجد الالمانية تمعن في حقائق الاشياء، وتحاول ، مثلنا ، ما امكنتها الحيلة ، ان تدخل المعاني الى لغتها ولا تدخل اليها الالفاظ ، سواء منها ما كان مفردا وما كان مركبا ، فمن المفردات ، نجد كلمة التاريخ ، غير مستعملة عندها ، كما هي في باقي اللغات الاوربية ، بل اشتقت لها من مادتها الالمانية كلمة سرد Gescichte ولكن المؤرخ Historiker والوصف hietorisch فهي اذن لم تبق حرة طليقة وكذا الامر في المركبات،

وتقدم انها سمت «الهيدروجين» باسم أصل الماء او جوهر الماء ، هكذا Wasserstoff ماء Wasser ومادة Stoff مركبين وهي فى هذا قد استعانت بأصل الكلمة اليونانية hudór اي ماء ، و gen اي اصل من مصدر genna-ein فحلت مشكلتها ووقفت عند هذا الحد بالرغم من أن لها فى لغتها روافد عديدة ، حيث انها تحتوي على عدة لهجات تغنيها عن غيرها غالبا .

ومهما يكن ، فاننا بصدد العربية ، وموقفها من عملية النحت الذى عرفه ابن فارس بقوله « تؤخذ كلمتان وتنحت منها كلمة آخذة منهما جميعا» فقد راينا انها تجمع بين الطريقتين فيه ، والقدامى حاولوا احصاء المنحوت فىالعربية ، فوقف بعضهم عند بضعة عشر من امثلته ، وآخرون لم يتعدوا او لم يصلوا بها الى المائة .

غير أن ابن فارس جرى بعملية النحت اشواطا، قارب بها نحو الألف ، حيث يرى أن اكثر الرباعي والخماسي منحوت من كلمتين .

والواقع ان هذا العدد لا يعنينا بقدر ما يمكننا من الحرية فى عملية النحت ، الذى اصبحت الحياة المعقدة تاح علينا فيه ، واصبحت الاجناس البشرية، تتقارب فيما بينها وتكون لها مجتمعات على مستوى الدول عامة أو على مستوى جماعة منها او على فكرة من الافكار ، بعد المخترعات العديدة ، التى قد تتطلب مئات الاشياء وآلاف الأدوات ، وكل ذلك لابد من تسميته مركبا بعد أن كان مسمى مفككا او على انفراد أجزائه ، فكان الاتوموبيل والتيلفون والتلفراف ثم التلفزيون والنيلون ، هذه الاشياء تعد من ابسط ما واجهنا به النحت ، كما واجهنا بالديموقراطية والديكتاتورية والنازية ونحوها ، وكانت اليونسكو والمخترعات الكيماوية مما وجدت لها حلا فى اللغات ، فكيف بنا الآن أمام المخترعات الفضائية التى تتألف من مئات الاشياء وآلافها ؟

وعلى كل حال فانا من استعراضنا للوسائل التى تستعملها العربية فى تعبيرها ، وجدنا منها ما استعمل ترفا ، كالتشبيه والمجاز عموما وكالكناية ، وما استعمل بداعي الحاجة ، كالاضافة والنسب والاشتقاق الذى يطبق على هذه جميعا ، كما يطبق على غيرها فيما سنرى وعلى العموم فقد دخلت الاولى فى منطقة تجميل الكلام ، وهي « فن البلاغة » ، ودخلت الباقية فى ضروريات الكلام ، فهي فى التصريف والنحو، وضربنا لذلك أمثلة باللغات الاجنبية ، وهي تعم الجميع .

ومن تلك الامثلة ، ادركنا انه لا حدود فاصلة تامة بين النوعين المذكورين ، فقد تدعو الضرورة، فلا تجد من يسعفها الا وسائل الترف ، وقد لا تكون هناك ضرورة ، ومع هذا تستعمل وسائلها . وبذلك ينشأ المترادف ، كما ينشأ بالترف والمعرب وتعدد اللهجات . ومن المفيد أن نأتي ببعض الامثلة التى هي فى العربية مقابلة لتلك التى ذكرناها من غيرها .

فمن الاضافة وجدنا قوس قزح واكسير الحياة ، وحب العزيز فى مصر ، وحب الملوك فى المغرب ، ودار الصنعة ، وبيت المال ، ودار الثقاف بالمغرب . ومن النسب : اليماني والهندي فى الفصحى ، وفى معناه الجديد فى عاميتنا ، كالكومية والوزانية فيها ، والمهلبية بالشرق والمنصورية بالمغرب ومن الاشتقاق ، كالنشيرة ، بمعنى ما يعرف الآن باسم « الفاتورة » ويصح ان نضع فيها « النفالة » أيضا ، وكلتاهما للمفعولية والاخيرة « النفولة » . ومن الاستعارة كيد الدهر ، وراس الكلام ، ومرآة الحياة ، وشباب الزمان ، ولحن السعادة ، ودمدمة الشقاوة ، و « طعام الاثيم » و « العزيز الكريم » تهكما . ومن المجاز المرسل ، شرب الكأس ، ( ولا بأس بالجرسى Jersey) والتكلم مع الدار ، وجعل الاصابع فى الاذن وعصر الخمر ، والبرتقال للفاكهة المعروفة، ومن الكناية أهل الحجر والمدر والوبر، وبيت الماء، وأهل الدار، وعريض القفا، للحمار، كما فى حديث من فهم الخيط الابيض والاسود على الحقيقة ، وريق النحل ، والتكفف وخفة اليد ... اما التشبيه ، على ما هو عليه ، فلا وجود له ، فيما نعلم بالعربية ، ولكن خليل التركي استعمله كثيرا ، فى مختصره المعروف ، وقلما يخلو منه باب من ابوابه ، وهذه امثلة قليلة من ذلك : « بكالعزى » فى اليمين ، « فى كسبيل الله » بالنذر « من كقاعد » فى الجهاد ، « فى كافريقية » بالنكاح « لا بكاعتراض » فى الخيار منه ، « من كابل» فى الصداق ، « عند كأمها » فى نكاح التفويض ، « علي كجدار » فى وليمة البناء بالعروس ، « ولو بكتقويم » فى الطلاق ، « وان بكاحرام » فى الارتجاع، و « بكمشيئتها » فى الظهار ، و « وفى كالثلاثة » ـ الايام ، وفى التطوع او غيره ان خرج ـ «لكرباط» فهذان مثالان وردا فى رفع زوجة المفقود، و«نبذ بكدباء»

فى الطعام المباح ، وهو كثير جدا . ويكلف الشراح تأويلا يدعونه بحذف المنعوت والواقع ، ان الصنيع التركي ، هو الذى شجع هذا التركي العظيم على استعماله ، المذكور ، وهو الذى جعل شوقي التركي يقول :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

فهذا التشبيه « كالمنور » هو المفعول به على الحقيقة ، كما ان ما قام مقامه ، فى قوله : « ما يشبه الاحلام » هو الفاعل فى البيت :

يا جارة الوادي طربت وعادني
« ما يشبه الاحلام » من ذكراك

وكذلك نجد لشوقي هذا الصنيع فى نحو قوله :

ولا ينبيك عن خلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فقد جعل الفاعل هنا ، المشبه به اداة التشبيه، ولا شك انه نظر فى ذلك الى قوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » .

فالفاعل فى الواقع المشبه به اداة التشبيه « مثل » اذ هي فى المعنى لا تستقل بنفسها ، وان كانت فى الصناعة فاعلا بنفسها ، مما اهلها فى التركيب العربي ، لما لم تؤهل له كاف التشبيه .

ولكن غير شوقي وخليل ، ان احتاج الى هذا التشبيه ، احتال عليه ، فقال : « ذهب الاصيل » و « لجين الماء » و « حمار الشيخ » ونحو ذلك ، مما اضيف فيه المشبه الى المشبه ، وقد استعمله جدا ، ابن خفاجة ، زيادة على الصورتين الاوليين خصوصا فى قصيدة له مطلعها :

يا رب ليل بته
وكانه من وصف شعرك

ومن الوسائل التى تتوسع بها اللغات فى دلالاتها ، وسيلة التعميم والتخصيص ، فالخاص يستعمل فى المعنى العام والعام يستعمل فى المعنى الخاص .

وقد تنبه الاصوليون وعلى راسهم الشافعي الى هذا فى النصوص الشرعية بصفة خاصة ، الا انهم توسعوا فيه ، حيث كان قصدهم مناط الاحكام ، ولم يكن مناط الدلالات ، بمعنى انهم اقروا بعض العمومات فى دلالاتها اللغوية وان خصصوها فى احكامها الفقهية، فجاءتها هذه الخصوصية بنحو الاستثناء الذى اجاز فيه ابو حنيفة وغيره ان يتاخر عن المستثنى منه بمدة السنوات ، او نحو الصفات التى تقصر الاحكام على موصوفاتها ؛ وهكذا مما يطول الكلام فيه ، وحسبنا ان نجد له نماذج فى باب اليمين بمختصر خليل عند قوله « وخصصت نية الحالف وقيدت » الى آخر الباب وفيه ايضا تعميم للخصوص والعام الذى اريد به الخصوص وهو الغالب .

ثم كان البلاغيون والمناطقة يعالجون هذا النوع من التوسع ، فالبلاغيون حينما امعنوا فى المجازات المرسلة وجدوا من نماذجه ما يتصل بهذا المجاز ، لدرجة ان نشا الخلاف بين الاصوليين فيه ، هل هو جميعا من قبيل المجاز هذا ؟ والمناطقة نظروا اليه وهو يقوم بمهمة الدلالة اللغوية ؛ فكان تناولهم فقهيا لغويا فى الصميم ؛ كما نجد فى السلم اذ يقول :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمنا وما لزم
فهو التزام ان بعقل التزم

وقد توسع فقه اللغة الحديث فى هذه الدلالات وسلط عليها الاستقراء التاريخي والتطور الاجتماعي والجنسي وهي على كل حال خاضعة لهذا الحصر المنطقي .

ومهما يكن فالعربية عرفت فى الجاهلية هذه النماذج التى تتراوح بين التخصيص والتعميم ، وتوسع فيها الاسلام فالشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة والوضوء والكفر والايمان والشرك والجهاد والتكبير والتحميد والركوع والسجود وغير هذه من مئات الكلمات التى جدت دلالاتها فى الدين الجديد ، كلها من هذا القبيل .

وقد الف الراغب الاصفهاني كتابه القيم « مفردات غريب القرآن » فارجع هذه المفردات الى عموماتها او خصوصاتها فى اصل الاستعمال اللغوي، الذى لم يقطع الاستعمال الجديد فى الاسلام صلاته بالقديم فيها .

فهذه الصلاة والزكاة والطهارة ، نجدها فى آية واحدة تمد يدها الى عمومها فتقول « خذ من اموالهم

صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » .

والكفر نجده يستعمل فى معناه من الستر ، فعم الزراع لسترهم البذور ، ولهذا وردت الآية « كمثل غيث اعجب الكفار نباته » اي الزراع ، ومن هذا الستر تكفير السيئات الذى ورد منه فى القرآن عشرات من الآيات ، مثل « كفر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم » ومثل « ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا »

ومن العجيب ان نجد هذا الستر فى الكلمة باللغات الاوربية ، فى مثل Cover الانجليزي و Cubrir الاسباني ونحو ذلك فى اللغات الآخذة من اللاتينية كالايطالية والرومانية وغيرهما .

ومن الكلمات التى صارت تجنح الى التخصص كلمة الانتقاد ، فهي كذلك فى العربية وكذلك اختها Critic فى غيرها وهكذا العربية استفادت من التخصيص فى عصرنا ، كما نجد ذلك فى تسمياتها الطيارة والدبابة والفواصة والعوامة والمدمرة والمدفع والحافلة والشاحنة والجرار والجراف والسيارة والدراجة والاسعاف والامن والنظام والاستقرار والمخبر والساعي والنجدة والانقاذ والامين والشوكة والسكينة ، وغير هذه مما يجد باطراد مستمر ، وقد يشتق من بعض هذه ، كالطيار والمطار ، كما اشتق من المطبعة الطباعة وغيرها .

فهذه كلها معان جديدة ولدتها أم التخصص لهذه العربية ، ولا افهم مطلقا من يقولون ان دلالات الالفاظ فى العربية لم يطرأ عليها تغيير فهذه القولة تسيء الى العربية ولا تشيد بفضلها .

بل ان التطور فى الدلالة ، حاصل حتى فى هذا المتخصص . وهذه الكلمة نفسها ، وقد جاءت عفوا فى عبارتنا تطورت فى مدلولها عما كانت عليه بالامس ، فكلمة « المتخصص » الآن لها مدلول لم يكن يعرف على ما هو عليه عندنا ، فهذا متخصص فى فقه اللغة العام وهذا فى فقه اللغة الخاص ، بالمقارنات او الاشتقاقات أو التاريخيات أو ما الى ذلك من نوع الدراسات اللغوية وهذا متخصص فى امراض الكلى وآخر فى لين العظام وآخر فى الجهاز الهضمى او البولي او السمعي او التنفسي او ما الى ذلك من الاجهزة الكثيرة ، زيادة على التخصص فى الاسنان والعيون ، مما اصبح مستقلا بنفسه تمام الاستقلال ، وسيأتي يوم يتخصص فيه طبيب الاسنان بالفك الاعلى ، وآخر بالفك الاسفل ، وطبيب العيون ، بالعين اليمنى وآخر بالعين اليسرى ، وطبيب الآن كذلك .

نعود الى هذا العام الذى خصص فى غير العربية ، لنقارن بين طبيعة المتخصص فى العربية والمتخصص فى غيرها فكلمة Avion فى الاسبانية وغيرها ، وكلمة Aviación فيها وفى غيرها ، تقابلان ما تخصص فى العربية بالطائرة والمطار ، بضم الميم ، كما سنرى .

وهنا تقف غير العربية ، فليس فيها طيار مشتق من Aviar بل فيها Piloto ونحوها ، بما لا علاقة لهابمادة الطيران ، بل هو من Pilotear العام فى الجو والبحر والارض ، وان كان قد اشتق له فيما مضى Aviador فى الاسبانية، ونحوها ، و Aviator فى الانجليزية كذلك ، الا ان الاستعمال الآن جنح الى المعروف بكونه يعم القائد والمرشد فى السماء والارض والبحار ، وقد بدأت العربية تجاري هؤلاء فى هذا الانحراف عن المادة الاصلية ، فصارت تسمي الطيار ، ربان الطائرة او ملاحها . ولا لزوم لهذه المجاراة ، خصوصا وانها تستبدل بالكلمة الواحدة ، وهي الطيار ، كلمتين ، وهما ربان الطائرة او ملاحها ،، زيادة على أن العربية لها فضل السبق فى خلق كلمة طيار للآدمي ، وقد مضى عليها اربعة عشر قرنا ، منذ لقب بها الشهيد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه .

نكتفي بهذا المثال ، مما هو فى غير العربية من العام المخصص ، ونتوجه الى مقابله ، الخاص المعمم .

فمن ذلك كلمة الرائد ، فقد اشتق هذا من الورد الى الماء خاصة ، ثم تعمم بالاتيان الى كل مطلوب ، وكان الرائد الذى يتقدم قومه فى السفر ليهديهم الطريق ، ومنه الرائد لا يكذب قومه ، بل صار الورود عاما فى كل آت مادي او معنوي حقيقي او مجازي ، مثل ورد فلان وورد الخبر علينا وورد الماء والتيار الكهربائي او الضوء ان اردنا .

ومن ذلك كلمة الاستنباط ، فقد كانت خاصة بعمل النبط ، وهو استخراجهم للمياه ، الذى مهروا فيه ، كالفيلاليين فيما مضى عندنا ، ثم صار كل استخراج للمياه يدعى استنباطا ، ولو لم يكن المستخرج نبطيا . ثم زاد التعميم فى كل استخراج للمياه وغيرها ثم تعدى هذا الى المعنويات ، ولازمها حتى اصبح او كاد يتخصص بها فيقع له ما سيقع لرواد الفضاء ، فيطلق عليهم رواد بدون هذا القيد.

ومن ذلك كلمة ماهية التى دخلت الى العربية من « ماه » القمر فى الفارسية ، وهي بمعنى المرتب

الشهري ، ثم اصبحت تطلق على كل مرتب ، شهريا كان أم غير ذلك .

ونظيره كلمة مشهرة التى دخلت الفارسية من العربية بمعنى المرتب الشهري ثم صارت تطلق على كل مرتب شهريا كان أم غير شهري .

ومن ذلك كلمة كفل ، وقد جاءت الي عفوا ، فوجدت أصلها خاصا بالكساء الذى يوضع على ظهر البعير فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، فالاكفال غير الاحلاس ، كما فى الامثال ، ثم قيل تكفل الحمار ، اذا حلق ثوبا على ظهره وركبه ، ثم اطلق على كل اشتمال مادي ، ثم معنوي كالنفقة والقيام بالاشياء عامة ومضاعفة الجزاء ، وصارت الكلمة تجنح الى المعنويات فيقال تكفل فلان بالامر ، اذا تعهد القيام به .

وهكذا تتعمم الكلمات فى مدلولاتها التى كانت خاصة ، بالكثرة التى جعلت اللغويين ، يدعون أن الكلمات فى نشأتها كانت خاصة ، وما تعممت الا اخيرا ، حيث ارتقى الانسان ، فأدرك الكليات بعد ادراكه للجزئيات ، وهو ما أدركه المناطقة عموما ، فقال السلم مثلا :

من اوليات مشاهدات
مجربات متواترات

الى آخر اليقينيات التى نشأت من المشاهدات

هذه امثلة من العربية ، اما غيرها ، فكلمة Arrive الانجليزية ، كان معناها الوصول الى River اي النهر ، ثم صار معناها الوصول مطلقا وكلمة Salary كان معناها النقود التى تصرف لشراء الملح من كلمة Sal ثم صار معناها ما يدفع للاجير او الموظف عامة وصارت تجنح الى المرتب الشهري وهكذا نجد فى عدد من اللغات يصبح الخاص عاما ثم تدور الدائرة فيصبح هذا العام خاصا فى معنى جديد غالبا واللغة كائن حي نشيط

ومن هذه الوسائل التى توسلت بها العربية فى توسعها اويمكن ان تتوسل بها الاشتقاق من الزمان والمكان فالزمان ، كالصباح والغداة والمساء والعشاء والضحى والقائلة والليل

فمن الصباح اشتقت العربية اصبح ونحوه ، كما قال الافوه الاودي :

اصبحت من بعد لون واحد
وهو لونان وفى ذاك اعتبار

ومن المساء ، كذلك . مما نجده فى قول ابي تمام :

وما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن امسى وليس له ذخر

ومن الغداة كما فى قول الغند الزماني :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان

ومن الضحى ، قول عمر بن الخطاب : « اضحوا عباد الله » اي صلوا بالضحى

ومن العشاء ، قول الحطيئة :

متى تاته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد

فمعنى تعشو تراها ليلا وتقصدها فيه عشاء .

ومن القائلة ، الحديث « قيلوا فان الشياطين لا تقيل » .

ومن الليل ، قول ابن حبوس الفاسي :

والكل فى علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم أن ليلا

وقالوا كذلك : اليل فلان اذا دخل فى الليل ، والليل الكروان ، لتفريده ليلا ، ولهذا اسمه بالانجليزية Nightingale ففيها هذا الاشتقاق من الليل كذلك ، كما اشتقت من الصباح Morning واشتقت الاسبانية من الصبح Madrugar فالاول من Morn والثاني من Madrugada التى يرادفها Alba وهو اول ضوء للنهار ، كما اشتقت الانجليزية من المساء ايضا Evening فهو مشتق من Eve اي انتصاف النهار ، ونحوه موجود فى الاسبانية ، وان كانت قد جنحت به الى معنى ما تؤديه « ظل » فى العربية ، وهو تطور فى الدلالة ، من القيد الى الاطلاق ، او من التخصيص الى التعميم ، كما حدث فى العربية ، للافعال السابقة ، اصبح وامسى واضحى وحتى غدا ايضا ، فصارت من الافعال الناقصة ، وهي فى تلك الامثلة السابقة افعال تامة ، والا لما دخلت واو الحال على ما ندعيه خبرا فى غيرها ، كما راينا ، وكما فى قول الغند المذكور :

فلما صـــرح الشـــر
فأمسى وهو عريـــان

بل ان « ليس » التى ادعي فيها النقصان دائما، وردت تامة ، كما فى قول النابغة :

اذا ذهب العتاب فليس حب
ويبقى الحب ما بقي العتـاب

وهذا مبحث آخر ستناوله عند تناولنا للغة فى تراكيبها ، اما الآن فنحن بصدد مفرداتها

ومن الاستعانة بالزمان ، قولنا الغداء لطعام الغداة ، والعشاء لطعام العشاء

ثانيا ـ المكان ، نقول : انجد فـلان صـار فى نجـد

واسهل صار فى سهل
واجبل صار فى جبل ، قال ابن حبوس الفاسي:

وتفجرت عيـن النباهـة بعدمـا
قد كان خاطرها اكـل واجبـلا

اي انقطع ، والاصل فيه صعد فـى الجبـال واوقل فيها ، فانقطع خبره ، بل الوقل نفسه من هذا ، فهو الحجارة ، وبذلك يكون من قبيل المكـان

واتهم صار فى تهامة
وايمن صار فى اليمن ، وكذلك ، يامن
وعرض صـار فى العـروض ، وهـي مكـة والمدينة ، والطريـق فى عـرض الجبـل ، قال عبد يغـوث :

فيا راكبـا اما عرضت فبلغـا
ندامايَ من نجـران الا تلاقيـا

وهكذا استفادت العربيـة من الزمـان ، كمـا استفادت ايضا من المكان ، فقالت اعرق وبدا وتمدن وغار وابلد واعمن واشأم واجنب واشمل وشرق وغـرب .

فمن نجد ، وغور قول الاعشى :

نبي يـرى ما لا تـرون وذكـره
أغار لعمري فى البـلاد وانجـدا

ومن العراق وتهامة وعمان ونجد ايضا ، قول المزق العبدي :

فان تتهموا انجد خلافـا عليكـم
وان تغمنوا مستحقبي الحرب اعرق

ومن الشام ، قول الشاعر :

سمعت بنا قيل الوشـاة فأصبحت
صرمت حبالك فى الخليط المشئـم

ومن البداوة ، الحديث الشريف « من بـدا جفا » أي من سكن البادية اكتسب منها الجفاء

ومن المدينة ، قولهم تمدن فـلان ، اذا سكـن المدينة .

ومن البلد ، قولهم أبلد بالمكان اتخذه بلدا

ومن الجنوب ، قولهم أجنب القوم ، اذا دخلوا فى الجنوب

ومن الشمال ، قولهم : اشملـوا ، اي دخلـوا الشمال .

ومن الشرق ، قولهم : شرق فلان ، اذا اخـذ فى ناحية الشرق .

ومن الغرب ، قولهم : غرب ، اذا اخذ فى ناحية الغرب ، قال الشاعر فيهما :

سارت مغربة وسـرت مشرقـا
شتـان بيـن مشـرق ومغـرب

وبهذا نرى العربية قد استفادت من المكـان ، استفادتها من الزمان استفادة واسعة، وهو ما لا نجده فى غيرها ايضا كذلك فقد نجـد فى الاسبانيـة من الانـدلـس Andaluzada و Andalucismo فالكلمة الاولى يراد بها المبالغات الاندلسية ، والثانية اللهجة كذلك ومـن قشطيليـة Castillanizar ، والمراد بها الاسلوب المنسوب لكستيليا يلقن للاجانب عنها ، فالاشتقاق اذن حصل بعد النسبة لها ولا نكاد نجد هذا الاشتقاق فى غير هاتين الناحيتين ، وطبعا لا يتوقع ان يوجد شيء من ذلك فى الانجليزية التى تتحرك فى اشتقاقها بمساعدة فعل الكينونة ، ان لم يكن هناك مصدر تعتمد عليـه مباشـرة ، وكذلـك الشان فى الالمانية والفارسية والتركية .

نعم ، قد سبق ان « Arrive » ماخـوذ مـن « River » ولكن قواميسهـم في Etymology تذكر ان الانجليز أخذوا هذه من الفرنسية بعد اشتقاق الكلمة فيها

حقيقة ان الاسبانية اشتقت من الطريق فقالت: Caminar مـن Camino ولكن الملاحـظ فى هـذه الحركة اكثر من الصيرورة فيه ، ولهذا لم نذكـره

في هذه الظروف المكانية ، وبعبارة ان الطريق ، كان بعد الطروق ، فهو مأخوذ من الفعل لا الفعل مأخوذ منه ، ومادة الفعل اوسع منه فهو فعيل من الطرق بمعنى مفعول منه .

وبالجملة فالزمان والمكان لهما اهمية خاصة في العربية ، ولذلك الف المرزوقي الاصفهاني من رجال القرن الرابع واوائل الخامس كتابه القيم « الازمنة والامكنة » وكان استاذنا المستشرق Paul Kraus اذا سأل احدنا عن هذا الكتاب ، فأجاب بأنه لا يعرفه ، ينحى عنه بالتجهيل والتقريع . لان مثل هذا الكتاب ، يجب ان يكون كل طالب في العربية على علم به واطلاع عليه .

ومهما يكن ، فاننا زيادة على تلك الوسائل التي ذكرنا ، لنا وسائل اخرى نجملها فيما يلي :

الالوان ، كتسمية نوع من الحيات ، باسم الاسود، والتسمية بأحمر ثمود، والاعتماد على اللون، نجده حديثا في مثل البطاقة الرمادية والبطاقة الخضراء ، المعروفتين لكل سائق سيارة .

الاشكال ، كما هو معروف عند الموقتين ، في نحو نحو «الربع المجيب» و «الربع المقنطر»،وعند اصحاب الهندسة ، كالمربعات والمثلثات ونحوهما ، وقد تتعاون الالوان والاشكال والاصوات،مكما حصل هذا في « المربع الاحمر » لاصحاب زيت لوسيور . وقد ذكر النحاة امثلة لذلك ، في نحو طاق للضرب ، وطق لوقع الحجر ، وقب لوقع السيف ، وساق حر ، لطائر ، قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق الا حمامة
دعت ساق حر ترحة وترنما

- وقد وقف فقهاء اللغة عند هذه الكلمة وقفة طويلة ، يعللون اشتقاقها .

اما النحاة ، فعقدوا لهذا باب حكاية الاصوات ، كما ان اللغويين القدامى والمحدثين ، والفلاسفة في القديم ايضا ؛ استرعى نظرهم

ذلك ، فكان منهم من ادعى ان الالفاظ اللغوية كلها ، انما نشأت حكاية للاصوات ، وهذا لا يعنينا، ان كان صحيحا ام لا ، بقدر ما نستفيد منه ، وهو كائن في اللغة ، ويمكن الاستفادة منه ، وقد راينا في اللفات الحية ، شيئا من هذا ، كما في تسمية « الطبيلة » باسم طمطم Tomtom وتسمية لعبة « البينكبونك Ping-pong و Croquet ربما تكون كلمة « التراكتور » من هذا القبيل . وعلى فرض انها ماخوذة من اللاتينية ، فان هذه قد حاكت الصوت ، فيما سمت به قديما ، وقلدت في ذلك حديثا . قال لي طالب اسرائيلي ، كان يحضر علي درس الفارسية ، اني ادركت تماما معنى كلمة « كرفتن » اي القبض والاستيلاء ، ولا شك ان ذلك كان في خفة وانتشال ، وهذا طبعا يفهمه الاسرائيلي اكثر من غيره .

الاساطير ، فتسمي طائرة من الطائرات ، مثلا، باسم العنقاء ، او آلة هائلة باسم الغول ، وقد فعلت هذا انجلترا فسمت الآلة الرافعة للاثقال العظيمة باسم Bogey ومعناه الغول ، واخيرا وجدنا اميركا تلتجيء الى اساطير اليونان ، فتسمي باسم الله الشمس وغيرها Apollo ثم تستعين بالارقام بعد، فيكون ابولو واحد واثنين الى خمسة عشر ، وهكذا دواليكم ، وهي التي سمت طائرتها المدمرة Phantom اي بعبع .

وقد يلعب الخيال ، فيصور الاشياء وهي لا ترى ، بصورة ما ، كدائرة السوء ، او يضفي عليها لونا ، كالحمى الصفراء والاسودين للتمر والماء او يجعلها تصيت كنداء المجهول ، وهذا في الواقع من صنيع الشعراء ، واصحاب الخيال الخصب ، ولكنه اذا ما شهر صار يؤدي ما تؤديه الاسماء المعتادة فمن منا يجهد فهمه في ادراك « صوت الضمير » و « دائرة السوء » التي جاءت في القرآن الكريم ، وادركتها الافهام بلا كلفة او مشقة ، كما ادركت « رؤوس الشياطين » وقد جاءت في القرآن ، وادركت « انياب اغوال » في شعر امريء القيس :

ايقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كانياب اغوال

وبعد هذا كله فللغة ان تخترع ، وهذا من علامة حيويتها واستجابتها الى كل ما يجد في الحياة ومتطلباتها ، وقد جاء الاسلام بجديد فاحتاجت اللغة الى جديد في اللغة ، فاخترعت الفاظا قرآنية ، لم يكن العرب يعرفونها ، وخصوصا فيما يتصل بالاخرة من تصوير اهوالها وعذابها او نعيم جناتها ، كالسلسبيل ، والصعود ، وسقر ، وسجين ،

وطوبى ، وغساق ، وغير هذه ، وان ادعي كونها معربات .

وهذا ليس بدعا في اللغات عامة ، وعندنا كلمة Gaz تعيش في كل مكان . ولا يعرف لها اصل البتة.

واذكر ان احدهم صنع شيئا ، فدخل عليه طفل سأله عن اسم المصنوع . فسأله هذا الصانع : كيف تسميه ؟ قال له . كذا ، فسماه بذلك . ولم يكن لذلك الاسم اصل من اللغة ، وقد وضع احدهم رسوما متكسرة . على شكل زوايا حادة متسلسلة ، ودعاها « كيكريكو » ورسم الى جانبه رسما آخر ، عبارة عن سلسلة من انصاف دوائر ودعاها « امبو » ولكنه وضع الاسمين ، ودعا تلاميذ من مختلف الجنسيات واللغات وسألهم : اي الرسميين « كيكريكو » فكلهم اجاب بانه صاحب الزوايا الحادة ولا شك انهم يدركون العلاقة بين تتره مك التركية والاضطراب و trouble والواقع ان الرسم له صلة بما يعرف عند الرسامين ، باسم « كروكي » . واعرف سيدة اخترعت كلمة « زوطوطو » فسارت الكلمة في الوسط العائلي ومن الكلمات المخترعة كلمة « روكوكو » Rococo وهو من اسماء الزخارف ، وكلمة « كوداك » Kodak .

ولا شك ان هذه الكلمات ، سيزداد عليها . ولن تقف مكتوفة ، بل سيشتق منها فيما بعد ، شأنها شأن باقي الكلمات في العربية . سأل الضيف صاحب المنزل عن طعام ، قد اتى عليه ، فأغاظ صاحب المنزل الاب الفقير ، ما اسم هذا الطعام ؟ فأجابه بغيظ : « الكجدور » فقال له : « على ش ما كجدرتوشي منو بزاف »؟ وهكذا اشتق من الكلمة الغريبة عليه، بمجرد فهم مدلولها ، كما اعتقد ، وهي طبيعة العربية الام الولود ، التي تمكن اولادها من حرية التصرف ، فيشتقون من « الاستيك » ، فعل « استك » وغيره، كما يشتقون من da le المركبة في الاسبانية من فعل أمر من صدر dar اي الاعطاء ، والمفعول فكان التعبير dale اي اعطه ، ولكننا قلنا دالا عليه ويدالي الى غير ذلك من كل ما يدخل الى العربية من كلمات لها اصولها او مخترعة لا اصول لها ، كما تقدمت امثلة له .

وبعدما تعرضنا للتعريب في مفهومه القديم والحديث والوسائل التي تمكننا من سد الحاجة التي نشعر بها حيال هذا العصر واختراعاته المتلاحقة ، وما تتطلبه حضاراته المختلفة .

نلقي النظرة الاخيرة على ميدان التعريب ، يكون بهذا تلخيص ما تقدم وتبسيط بعض الجوانب منه ، بأمثلة منها ما يعايشنا ويسايرنا في تنقلاتنا اليومية ، ونحن في مضمار الحياة ومعترك الاحداث .

ولا شك أن امامنا مشاكل متنوعة في هذا المضمار وذلك المعترك . فهنالك العامية ، التي يجب ان نأخذ بيدها ونسمو بها الى مستوى راق . بدل ان ننزل اليها من هذا المستوى الراقي . وهنالك الفن ومذاهبه . كما قيل ، فهو يصور الحياة في لوحاته الزاهية والشاحبة والقاتمة ، برسومه وموسيقاه ، التي اصبحت تتطور مع الايام بأدواتها واصداحها ، الى جانب ذلك الرسم الذي لا يقتصر على المشاهد ، بل اصبح يجاذب الكتابة ويرقى الى الرموز ، التي قد تعجز عنها الكتابة نفسها ، فهو يسبح في عوالم خارقة للعادات وهو يخاطب او يحاول ان يخاطب وجدانات، بلغات لا تقوى عليها الكتابات والاصوات ، فهو حر طليق لا يعترف حتى بسلطان النفسيات والمسجلات للخطرات الرتيبة ، في سهولة تراد منه او اسلاس ينقاد به . انها الثورة التي يريدها الخيال الجامح في اعلانها المكسرة لاصنامها . وهناك النحت ، لا يقل في غاياته عن غايات الرسم ، وان كان طريقه وعرا ، تكتنفه الصخور عليه ان ينحت منها ، والاوحال عليه ان يفوض فيها فهو على رعونته ، اصبح لا يقل عما عليه الرسم في اطيافه واحلامه ، ووداعته وثوراته .

وهناك الكلام ، وهما كما يقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والفؤاد هذا قلب قلب ، يقلبه من هو كل يوم في شأن ، فعلى اللغة ان تسجل خطراته ، وان تضبط دقاته ، وهي كما قال شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان

نعم ، انها دقائق وثوان ، ولكن هذه الدقائق والثواني ، ما اعظم متطلباتها ، وما اشد ما يتحمل الانسان من اماناتها ، وقد ابت السماوات والارض والجبال ان يحملن هذه الأمانات ، كما قال تعالى « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه

ان ظلوما جهولا » هو ظلوم عليه ان ينصف نفسه وينصف الناس . وهو جهول عليه ان يعلم ويتعلم ما يلبي رغبات الافئدة في هوائها. والعقول في مناطقها، والاجسام في علالها واسقامها ، وصحتها وملاذها . من المشاهد والاذواق والمشاعر والاسماع .

فهذا فن الكلام في آدابه ، التي تتولد وتتفاعل في الوانها وامشاجها ومعطياتها ومقاصدها ، وجميعها في تطور مطرد وفي انفصال هلامي مستمر ، وفي استقلال ببيء اصحابها واوطانها ومجتمعاتها وافكارها وثقافاتها ، بعد اللغات ، وقد أصبحت تعد بالآلاف.. واصبح على الانسان ان يفهم كل شيء، وقد واجه في حياته كل شيء ، فخيمت عليه الظلال من كل مكان ، ووجهت عليه الانوار والنيران ، فعلى هذه اللغة ان تتسلح بكل شجاعة ، وعليها ان تقوم برسالتها ، بكل عزم وقوة، فتمثل دورها في جميع المحافل خير تمثيل ان كانت على قيد الحياة .

ومن وراء هذا كله الفلسفة التي اصبحت من هذا الجيل مطالبة بالجديد ، والا فعليها ان تنسزوي من مسرح الحياة الجديد في جميع فروعها ، حتى « الميتافيزيقا » نفسها ، فمهمانها صعبة في هذا العالم الصعب المعقد ، الذي لا يرحم احدا ولا يحجم عن الاخذ بتلابيب العلماء العظام والفلاسفة الكبار ، فعليهم ان يفهموا ويبسطوا وعليهم ان يقنعوا العقول وهي في زيفانها وصراعها للاليكترونية العملاق .

وهذا العالم لم يبق بالرتابة او القداسة التي كان عليها ، فهو يطارد مطاردة لا هوادة فيها ، منذ بداية هذا القرن ، واشتدت المطاردة اثناء الحرب الاخيرة ، وازدادت اشتدادا بعدها ، وصارت الدنيا تميد بها ، واذا بالافلاك والنيرات تناجي الانسان فيطالب العالم بأن يحمله الى هذه الكواكب والافلاك ، فلا يجد المسكين مناصا من ان يستجيب لمطالب الانسان الجبار ، فيبني له المراكب الفضائية ويزوده فيها بما يضمن له السلامة ولا يحرمه مع هذا من الاتصال بالعالم الارضي لحظة ، ويتكفل بالعودة به اليه بعد ان يحط رحاله بتلك الكواكب ويطوف في ارجائها ويحمل من متاعها ويستعمر من بقاعها ، فلا يلبث بعد عودته ان يطالب العلم بدراسة هذه العوالم العليا .

فالجغرافي عليه انيخترع ما يشبه علمه لهذه الكواكب ، بل عليه ان يخترع اسما خاصا لهذا العلم، والجيولوجي عليه ان يدرس طبقات هذه الكواكب ، ويطبق على ذلك قواعد ما يشبه علمه . كما عليه ان يخترع اسماجديدا لهذا العلم ، والكيماوي عليه ان يحلل عناصر ما في هذا الكون او الاكوان ، ويسمي تلك العناصر بما يخترع لها من اسماء ، لان المداولات قد تكون غريبة عن هذا الكون ، وليس لهؤلاء ان يقولوا لعرائس تلك الافلاك :

صوني جمالك عنا اننا بشر
من التراب وهذا الجسم روحاني

او فابتغي فلكا تأوينه ملكا
لم يتخذ شركا في العالم الفاني

لان هذه العرائس تاوي فعلا هذه الافلاك فلم تتخذ لها شركا في عالم غير عوالمها ، ولكن الانسان هتك استارها وكشف خدورها فتجلت مفاتنها للابصار ، وانبهرت لاسرارها البصائر ، فلا اقل للغة من الوصف ولا مناص لها من الكشف ، بكل دقة وكل تبيان .

ان هذا الاكتشاف الذي ستتلوه اكتشافات ، قد تطلب آلاف الآلات والادوات ، فعلى اللغة ان تسمي كل ذلك بدقة وتفهمه للافهام وليس بقادر على هذا الا اهل العلم انفسهم، وقد وضعت اللغة امامهم وبين ايديهم ما تملك من ادوات التعبير ، ووسائله كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز وكالتشبيه وحكاية الاصوات والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة من اللغات بعضها من بعض وكالاختراع للكلمات وخلقها من العدم ، اذا لم نجد في هذا الوجود ما نستفيد من لونه او شكله او رائحته او حركته او ما الى ذلك او مما يسعفنا بمماثلة ما ولو في الوهم او الخيال الذي يساورنا او يخلف لنا من اساطيره وخرافاته .

لقد سمى آباؤنا سائل الكلونيا، باسم «مسيكو» فاسعفتهم الرائحة ، واخترع « شيكسبير » اسم « دولار » قبل ان يكون دولار وسمى آباؤنا ايضا الدراجة ، باسم « عود الريح » معتمدين على السرعة في الحركة ، وكان هذا تلقائيا منهم ووفقوا كل التوفيق ( وفي الفارسية « دوجرخه » اي فلكتان ) اذن فالعزم اولا هو ما نتذرع به ، في مواجهة التعريب ، وفي القديم واجه القوم ، فما وهنوا ولا ضعفوا ، وحلوا مشاكلهم في تدوين الدواوين ، ونقل العلوم المختلفة والآداب المتباينة والعقائد المتضاربة الى لغة الضاد ، ولم يكن اولئك اقدر منا في العربية ولا افهم منا لتلك العلوم

والآداب وغيرها ، بل كانوا دوننا فى ذلك ولا شك ، الا انهم كانوا يتوفرون على شيء لا تتوفر عليه ، وهو الشعور بالعزة والكرامة وانهم سادة يجب ان يخضعوا لهم ؛ لا ان يخضعوا لغيرهم ، وبذلك اخضعوا لغتهم ؛ فى يسر ؛ كل ما وصلوا اليه أو اتصل بهم .

هذا هو موقفنا الذى يجب ان نقفه ازاء هذا التعريب ، وهو موقف ؛ لا محالة ، يدعو الى التخصص ، بعد تلك العزيمة ؛ والى النهل من العربية والتعمق فيها ، حتى يمكن كل عالم او صانع او مغن او متفلسف ، ان يتولى ما يزاوله او يعانيه بالتعريب .

وعليه ، فالطبيب يتولى تعريب ما يتصل بطبه. والمهندس يتولى ما يتصل بهندسته ، والمتفلسف والمغنى ؛ كل لما يتصل بهاويته والصانع كذلك يعرب ما يتصل بصناعته ؛ وقد مكناه من ذلك بالتعليم ؛ الذى يسير فى ركبه هذا التعريب .

ولا نهمل مع هذا استشارة الشعب ، بل نعود الى قاموسه الحي ، الذى يمدنا بنحو « عود الريح » و « مسيكو » و « والصدفة » و « الكسكاس » و « غويلة » و « ترابية » ، وغير هذه من الكلمات التى تخضع للعربية وقوانينها ، كما نتلقى منهم من غير مشقة ما عربوه هم مثل يكمي ، من Quemar الاسبانية والكرو من Cigarro الاسبانية ايضا الا اننا نخضع الكلمة لقانون العربية ، فلا نتركها لمتنها هذا ، وفى آخرها واو قبلها ضمة لازمة ، بل تختم بهاء مثلا ، كما فعلنا فى ينيه ويليه وسيبويه ، وسميت الصورة السالبة باسم « عفريتة » فى عامية الشرق ، فلنا ان نستعير حتى من العامية .

كما نستعين برصيدنا فى الخارج فالاسبانية اخذت كلمة « كحال » Oculista لطبيب العيون وعنها اخذتها باقي اللغات الاوربية كما اخذتها مباشرة الفارسية فالتركية . فلماذا لا نستعملها نحن العرب فنجارى اللغات الحية التي استعارت منا ولنا الفضل عليهم ؟ ربما تانف من هذا ، فلم لم يانف غيرنا ان يسموا طبيب الاسنان بالسني Dentiste كما فى اللغات الاوربية والتركية ؟ وعلينا ان نجاري غيرنا فى ذلك، وقد استعملت هذه التسمية « دنتيلة » فى الاندلس وان كانت فى الاحتفال يبدو الاسنان ، وادعى بعضهم ان لها اصلا فى الفصحى ، وتوقف الزبيدي هنا .

والفارسية ثم التركية سمت الهيدروجين « مولد الماء » كما تقدم ، واستعملت التركية « تهلكة » بدل « خطر » ، والاسبانية « انبوب » Embubo بدل قمع . وهكذا نجد الفاظا نستفيد من وجودها فى الخارج او نختارها منه .

وهذا عمل يحتاج الى تعبئة عامة ، وكفاح يشارك فيه الجميع : الحكومة بتدخلها فى تعريب اللافتات والتذاكر واللوائح والصحافة باختيار الكتاب والمثقفين حقا والمتخصصين فى العربية تخصصا علميا . فلا تترك الصحافة فى ايدي من لا يحسن لغتها من المتطفلين عليها ، والتمثيل المسرحي كذلك له رسالة فى هذا التعريب ، فعليه أن يختار الموضوعات التى يستسيغها الشعب حتى يقبل عليها فى لغتها ، فتعمل فيه بطريق الايحاء ، وكذلك التمثيل الخيالي ومسرحه فى الواقع افسح من غيره، والأغاني العربية وحتى الشعبية تخدم كذلك التعريب، اذا احسنا استعمالها واخترنا اصواتها الجميلة والحانها السجية واعددناها بالموسيقى العذبة المؤثرة والاذاعة والتلفزة من اقوى دعائم هذه التعريب، فهي الصوت الذى يصبحنا ويمسينا والمشاهد التى تحيينا وتسامرنا وتناجينا .

اما المدرسة والكتاب فغني امرهما عن البيان، ولابد من الاستمرار والتذكير ، فقد كنت كتبت فى كون العمالة بالكسر ، فكان لهذا صداه فى اذاعة تطوان وفاس ولكن التذكير بهذا انقطع فعاد الناس الى العمالة بالفتح وعدت انا معهم الى هذا الضلال على علم به مني .

واخيرا ، لقد تركنا المفردات وما يمكن ان يستفيد منه التعريب فى حركته الدائبة بنشاط هذه الاحياء البشرية وبقي علينا ان نوجه العناية الى المفردات فى تركيبها ، أو تعريب الاساليب ، ان صح هذا التعريب .

وموقفنا هاهنا لن يطول ، لانه لن يكون معربا بحق وحقيقة ، فالعربية قد انتهت الى تراكيبها ، وليس فى الامكان ابدع مما كان فى بنيتها ، وارتفعت الاقلام عن تسطيرها وجفت الصحف بما فيها .

الا ان هناك ، جوانب لا تمت الى الخلق والابداع من جديد ، بل هي فى الواقع محافظة على ذلك الكيان اللغوي الذى هو بالنسبة اليها القلعة العتيدة والحصن الحصين ، الذى يجب الدفاع عنه الى آخر قطرة من دماء هذه اللغة الأبية المستميتة الصامدة .

ان العربية كما قلنا ، كريمة كأصحابها مضياف تكرم نزلاءها ، فوجود مائات او آلاف من الكلمات الدخيلة فيها لا يهدد حوزتها ، بل بالعكس يزيدها قوة ويكسبها منعة ، فى مواجهات كل الطوارىء .

ولكن العبث بالنظام المتبع فيها ، واحداث الفوضى فى مجتمعها ، هو الذى لا تقبله بحال . وهو الذى يجب الا تقبله ، كما لا يقبله اي عرف من اعراف اللغات قاطبة ، وهي لغات لها كرامتها ونها وجودها الازلي والخالد خلود الدهر .

ونعود فنقول ، اننا لن نطيل فى هذا التعريب التركيبي . وسنقف وقفة قصيرة ، عند بعض الاعراض ولا نقول الامراض التى طرات على هذه العربية فى عصرنا المريض برجاله ومثله العليا .

فأول تلك الاعراض ، بل أول تلك الامراض ، مع المعذرة ، مرض حل بمستقبل هذه اللغة ، نعم ، حل بمستقبلها مع الاسف ،ولكنه حل بمستقبلها السلبي ، لا الايجابي ، لحسن الحظ ، ولله الحمد على كل حال .

من المعلوم ، ان الافعال فى اللغات ، هي مفاتيح تلك اللغات ، بل هي حياتها التى بها يكون حيوانها ، والحيوان فى الواقع ، ما هو الا الحركة الجياشة ، كالفيضان والغليان والثوران والجيشان نفسه ، وبهذا الاعتبار ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » وبذلك تكون هذه الكلمة فى مدلولها الآن قد انحرفت عما خلقت لاجله .

وهذا لا يهمنا الآن ، فقد انتهينا من المفردات ، كما قلنا وعلينا ان نعالج مستقبل هذه اللغة فى افعالها السلبية ، وهي التى تحتاج الى علاج ناجع وسريع.

نقول سوف نفعل ، كما نقول سنفعل ، وهذا الاخير مختزل من الاول ، وكان قد عمل فيه هذا الاختزال ، فقيل سو افعل ، وسف افعل ، واخيرا سافعل ، فوقع الاقتصار على حرف السين وحده ، واهمل الاقتصار عليه مع الواو او الفاء ، وحوفظ على الام الرؤوم « سوف افعل » وهذا جميل فى هذه العربية التى تتجدد وتتطور ، ولكنها لا تتنكر للماضي ، ولا تعق الأمومة والأبوة .

هذا هو الفعل المستقبل الموجب فى العربية ، سلمه الله من كل بلاء ، ودرأ عنه كل اذاء ، فبقي كيوم ولدته امه على فراش الصون والعفاف

ولكن المستقبل المنفي وقع فيه من المصائب ما لا عين رات ولا اذن سمعت بمثله فى غير هذه اللغة الشريفة نسمع دائما ونقرا دائما ، وخصوصا فى صحافتنا المسكينة هذا التعبير :

« سوف لا يأتي فلان » ونسمع ونقرأ فى صحافتنا المنكوبة ، ما هو افظع من هذا وادهى ... نسمع ونقرا :

« سوف لن يأتي فلان » ،، فض الله فم من كان اول الناطقين ، بتلك العبارة الممسوخة ، وهذه العبارة الملعونة من السماء ، لان الله ما انزل بها من سلطان ، ولان كتابه الكريم قال : « لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني » فعلمنا كيف نعبر بالمستقبل المنفي « لن تراني » وقابل به المستقبل المثبت « فسوف تراني » .

اذن فاداة الاستقبال فى الفعل العربي المنفي ، هي الأداة « لن » فنقول « لن يسافر فلان » فى المستقبل من الزمان ، ولا نقول «سوف لا يسافر»،، ومن المخجل ان تستعمل هذه العبارة ، فى التمثيلية التى جابت من مصر فعرضت فى تلفزتنا بمناسبة المولد الشريف ، وهي تحكي حوارا كان على عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وافظع من هذه العبارة ، هو « سوف لن يسافر » ، فتلك جهالة جهلاء، وعدم اكتراث باللغة، التى ظن اصحابها اليوم ، كأنهم قيل لهم فيها : « تكلموا كيف شئتم » ، وصدق الشاعر :

رايت الحلم دل علي قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

ان مثل هذا التعبير انما هو استعمار انجليزي تعدى الى اللغة بعد ان اعتدى على اصحابها ، وما ابغضه من استعمار، تخلص منه الناس، ولم يتخلصوا من ادوائه العديدة، التى منها هذا الداء الوبيل ، فقد تلقى احد الكتاب الطفيليين ، وما اكثرهم واسمجهم، مثل هذ التعبير الانجليزي I shall not come فقد عليه عربيته المعذبة ، فى قبضته الاثيمة ، فقال : « انا سوف لا آتي » او « سوف لن آتي » ولو امعن جدا فى التعبير الذى سحره ، لقال : « انا سوف لا آتيان » هكذا ، وهو تركيب لا يوجد الا فى الانجليزية والالمانية بهذا النسج وهذا الترتيب ، ولا نعرف له مثيلا فى لغة اخرى غيرهما ، وهكذا نجد

العبارة المذكورة ، تكون في الالمانية

ich werde nicht kommen

سواء بسواء ، فتجعل اداة النفي تالية لاداة الاستقبال، كما في الانجليزية وفي تعبيرنا هذا الممسوخ « سوف لا » او « سوف لن » كما تقدم ، بينما الفارسية تدخل اداة النفي على اداة الاستقبال ، ولا تجعلها تالية لها ، فتقول في نفس الجملة « من نخواهم آمد » فالنون نفي وتخالف هذه جميعا التركية ، التي تاتي بالمصدر المرخم وتلحق به اداة النفي ، ثم تاتي اداة الاستقبال فتقول « بن كله ميه جفم » ويبقى بعد هذا اللغات المتفرعة من اللاتينية، كالاسبانية ، فانها تاتي باداة النفي ثم المصدر المرخم ثم اداة الاستقبال Yo no vendre

ويلاحظ ان هذه اللغات ـ ما عدا الانجليزية ـ تصل ضمائر الفواعل او علاماتها ، باداة الاستقبال ، وانها جميعا تستعين بالمصادر ، في صوغ فعل الاستقبال ، الا ان الانجليزية وليس لها مصدر غير مؤول ، تحذف الحرف الموصولي to والالمانية تاتي بالمصدر كما هو ، بينما الفارسية والتركية والاسبانية ترخم هذا المصدر عموما .

ثم انها تتحد في كونها لها اداة تدخل عليها او تلحق بها اداة النفي ، وهي واحدة الا في الانجليزية، فتختلف بحسب التكلم وغيره ، فهي للتكلم كما رأينا shall ولغيره will وقد يتبادلان قصد التاكيد كما يقول شيلي Our breath shall intermix وربما استعمل هذا الفعل في معناه الاصلي ، اذ لا مهمة له في الاستقبال

« We shall become the same. We shall be one spirit »

وكذلك العربية لها اداتان ، واحدة في الاثبات، وهي « سوف » او ما اختزل منها ، وواحدة في النفي وهي « لن » لا غيرها .

ولعل « سوف » كانت ظرف زمان في اصلها ، بنيت على الفتح للازمتها الظرفية ، وان كان المستشرق Bergstraesse يرى انها مستعارة من الآرامية Saupa ومعنى هذه « النهاية » او « الغاية » ، فكان معنى « سوف افعل » اني افعل في النهاية والغاية .

يقول علماء الالسن ، ان اللغات السامية ـ ما عدا الاكادية منها ـ ليس لها الا زمانان ، ماض قد انتهى ، وغيره لم ينته ويشمل الامر والحال والاستقبال .

فكون العربية استعانت بسوف ظرف زمان ، او saupa الآرامية على تعيين مستقبلها ، هذا شيء ليس بغريب في اللغات فالانجليزية ، في غير التكلم خاصة ، والفارسية عموما ، استعانت بفعل الارادة ، الذي ما زال بهما يستقل بنفسه احيانا ، فكان الاصل في « سيفعل » مثلا هكذا « يريد الفعل » وفي التكلم استعانت الانجليزية ، بكون الفعل ملزما ، فكان الاصل « سأفعل » هكذا « يلزمني الفعل » فهو الفاعل على الحقيقة ، وفي الالمانية استعين بفعل اصبح ، فكان الاصل في التعبير السابق هكذا « انا لا اصبح اتيانا » ويستعمل كذلك مستقلا وهذه الاستعانة نجدها في نحو «غادي» او «ماشي» او «خصني» او «نحب» التي تستعمل بالعامية كما يستعمل الرواح والود بالشرق

وليس لنا اداة لا تؤدي الا هذا الاستقبال المجرد ، سوى الاداة التركية والاداة الاسبانية الآتية من اللاتينية في غير العامية

هذه مقارنات في سوف مثبتة في العربية ، ومطلقة في غيرها .

وبقيت « لن » فما اصلها ؟

اختلف فيها ، فمنهم من يراها خلقت كذلك ، ومنهم من يرى ان النون ، حلت محل الالف من « لا » للتاكيد ، ومنهم من يرى ان اصلها « لا ان » فكان الاصل في « فلان لن يفعل » فلان لا ان يفعل ، فهي تفهم كون فعل لن يقع في الاستقبال .

ومهما يكن فجميع هذه اللغات ـ ما عدا التركية ـ استعملت النون للنفي هنا ، اما التركية فالميم وهي اخت النون التي طغت عليها تماما بالفارسية .. والنتيجة ان الفعل المستقبل في العربية ، اذا نفي يكون بلن وحدها ، كما قال الشاعر :

هي الشمس مطلعها في السما
فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصعودا
وان تستطيع اليك النزولا

ومن قبل بثلاث وعشرين سنة كتبت في اداة الاستقبال ، فاهتمت بذلك مجلة الروس البيض بتونس وابدته في مجلتها « Ibla »

# الفصحى لغة القرآن

**لغة فكر عالمي لنمو سبعمائة مليـــون مسلـــم جغرافيا ويمتد اربعة عشر قرنا فى التاريخ والتراث**

الأستاذ أنور الجندي ( القاهـرة )

ان التاريخ ليذكر ذلك الجهاد المتصل الـــذي حمل لواءه رجال امثال : مصطفى صادق الرافعي ، ومحب الدين الخطيب ، واحمد زكي باشا الملقـــب بشيخ العروبة ، وعبد العزيز جاويش ، وعلي يوسف ، والدكتور محمد محمد حسين ، واحمد الحوفـــي ، وغيرهم فى سبيل مقاومة الهجوم على اللغة العربية وانتقاصها ، والحملة عليها طوال تاريخ طويل يمتد الآن اكثر من خمسين عاما من خلال حملات المستشرقين والمبشرين ، ومن خلال مقررات حملها وزراء فى عهد الحماية البريطانية ودعوات فى الصحف وبعض المجامع من اجل تجزئة مفهوم اللغة العربية الاصيل المتكامل ، ومحاولة لتصوير اللغة العربية على انها لغة « امة » ومن حق هذه الامة التصرف فيها .

تلك هي القضية : لقد حاول الاستعمار والتغريب ان يطرح شبهة جزئية وجرت الاقلام في سبيل دعمها واقناع الناس بها ، ان اللغة العربية لغة امة هي الامة العربية وان كل قطر من شأنه ان يكتب لغة ، وان هذا الامر يستدعي كل بلد ان يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراه محققا هذه الغاية .

وكان هذا الاتجاه فى طرح القضية يحمل طابعا خطيرا من التمويه والتزييف والتجاوز .

ان طرح القضية على هذا النحو يمكن ان يكـون صحيحا فى اي بلد من بلاد العالم وفى مواجهة اي لغة ولكنه يصبح عسيرا جدا حين يطرح بالنسبة للغـــة العربية . ولو لم ترتبط اللغة العربية بالقرآن والاسلام لكان يمكن ان يكون هذا الكلام مقبولا .

اما وقد انزل القرآن منذ اربعة عشر قرنا باللغة العربية فانشأ عالم الاسلام الفكري والاجتماعي والديني فقد اصبح للغة العربية وضع مختلف لا شبيه له فى اي لغة اخرى . ولم يعد للعرب وحدهم حق التصرف فى اللغة العربية . ولم تعد اللغة العربية لغة اقليمية تخص قطرا ، بل لم تعد الامة العربية نفسها مطلقـــة الارادة فى التصرف بها .

هذه هي الحقيقة التي واجه بهـــا المفكـــرون المسلمون منذ اكثر من ثمانين عاما تلك المحاولة التي قام بها ولكوكس فى مصر وماسينون فى الشام وكولان فى المغرب ، ثم تابعهم بعد ذلك سلامه موسى والخوري مارون غصن وكثيرون .

ان اخطر ما تمثل اللغة العربية هو ان قارئها اليوم فى العقد الثامن من القرن العشرين يستطيع ان يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي ( اي ما كتب قبل نزول الاسلام بأكثر من نصف قرن ) .

أي ان تراثا حافلا قام في خلال هذه الفترة كلها ـ واعظمه ما جاء بعد الاسلام بالطبع ـ هذا التراث هو ملك حر لقراء اللغة العربية يلمون به الماما صحيحا دون أن يكونوا في حاجة الى مراجع أو معاجم ويفهمونه فهما صحيحا . وهذا ما لم يتيسر بالقطع لاى لغة في العالم كله اليوم ، وذلك أن أي لغة قائمة الآن بخلاف اللغة العربية لا يستطيع قراؤها أن يفهموا من تراثها الا ما لا يجاوز الثلاثة قرون ، اما ما يبعد عن ذلك فانهم يلتمسون لفهمه المعاجم . ان مرد ذلك ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى ، ومرجع هذا الثبات الى نزول القرآن بها وارتباطها به على النحو الذي انشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتآليف .

ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لا تستطيع اللغات الاخرى ان تشاركها فيها ولا تستطيع هي ان تجاوزها : تلك هي انها لغة أمة ولغة فكر ودين. فهي لغة الامة العربية التي يبلغ تعدادها اكثر من مائة مليون يتكلمون بها وبها يتعاملون ، وهي في الوقت نفسه لغة المسلمين جميعا : لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والعقيدة جميعا وهو القرآن الكريم .

ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه اهل اللغة العربية هو أن يسقطوا عن مستاى أسلوب القرآن ، ليصبح أسلوبهم قاصرا عن فهمه وتعمقه ، لأن ذلك من شأنه ان يفصل بينهم وبينه ، وذلك ما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والاسلام ، والتي تدعوهم الى ما يسمى باللغات الوسطى او تقريب الفصحى من العامية .

وامامنا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات العمل ان نقترب منه ونلتقي به ، فعلى العامية أن تقترب من الفصحى وليس على الفصحى ان تنزل الى العامية .

والتعليم كفيل اذا اتسعت آفاقه ان يقلل من الحاجة الى العامية وان يقرب الاتصال بالفصحى .

والذوق العربي كله متصل بالفصاحة ، وفهم الفكر الاسلامي والثقافة العربية متصل بهذا المستوى من الاسلوب والبيان .

لقد كان لارتباط اللغة العربية بالقرآن الذي نزل بها آثاره البعيدة المدى ، فلقد اتصلت اللغة العربية التي كانت تعيش على حدود الجزيرة العربية الى آفاق العالم كله وحملت معها ثقافة القرآن ، وحصيلة العلوم، ونظريات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وحملت معها المنهج العلمي التجريبي . فالقرآن هو الذي أعطاها هذه المكانة وفتح أمامها هذه الآفاق ، فهي بوصفها لغة الاسلام قد حملت رسالة ضخمة الى العالم كله والى البشرية : هي رسالة التوحيد .

ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من الفاظ اللغة العربية المتناثرة تشكيلا جديدا طرح على البشرية منهجا شاملا من الحياة والفكر والنظر في الكون وبناء المجتمعات والأخلاق .

وكان هذا هو مصدر دهشة الناس عند نزول القرآن ، فقد كانت هذه الالفاظ معروفة لهم باعيانها ، ولكن الاعجاز كان متمثلا في هذا التشكل الذي تشكلت به فكرا واداءا ، في هذه القيم الجديدة التي قدمها ، وهذه الصور المتعددة ، وهذه الروعة في اسلوب الاقناع والحوار ، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل .

ومعنى هذا أن ثروة اللغة العربية انما ترجع في تشكلها القرآني الذي أعطاها هذه القوة ، وفي نفس الوقت اعطاها الاسلام هذا الاتساع والذيوع .

ومن هنا قد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والاسلام صلة عضوية تمثل التجربة الاولى والاخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات ، ولا ريب أن هذا المفهوم له اثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعا لهذه اللغة ، وما يتصل بهذا من خطأ القول بان لقطر ما او شعب ما ، القدرة على التصرف في اللغة العربية .

ومن الحق أن يقال ان اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليونا من المسلمين جغرافيا ويمتد أربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث .

## (2)

هذه الحقائق كانت واضحة في اذهان اولئك المنافحين عن اللغة العربية في كل عصر : نراه واضحا في عبارات مصطفى صادق الرافعي قبل خمسين عاما حين يعرض للقول بأن العربية لغة أمة أم لغة فكر :

« ان في العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين ( القرآن ) الذي يجب ان يؤدى على وجهه العربي الصحيح ، ويحكم منطقا واعرابا بحيث يكون الاخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤادها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر . ثم هذا المعنى الاسلامي ( الدين ) المبني على الفطرة **والمعقود على انقاض الامم،** والقيم على الفطره الانسانية حيث توزعت وأين استقرت ، فالامر اكبر من ان يؤثر فيه سورة حمق او تأخذ منه كلمة جهل » .

« انما القرآن جنسية لغوية تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم اليها وأوجبها عليهم لما اضطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الأيام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية ثم تلاحمت اسباب كثيرة بالمسلمين ونضب بانيهم ولم يبق الا ان تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الامم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية فلا يتبين من آثارهم بعد ذلك الا ما يثبت عن طريق الماء اذا انساب الجدول في المحيط » (1) .

( 3 )

ويرد الكثيرون على شبهة المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية : بقول الاب صالحاني :

ان اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء . اما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن اللاتينية لغته الاصلية وانما كانت اخرى : كالسليتة السكسونية والجرمانية الهندية ، وامتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادي الزمان وبتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في اصقاع متنائية ودول مستقلة، فاين كل ذلك من احوالنا وعلى كل حال فليس من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية التي كما قلنا كانت لغة ميتة وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ أربع عشر قرنا ، لم تحط اللغات العامية الكثيرة من قدرها مع شيوعها ، ولو امكنها ان تعزلها عن مرتبتها لفعلت ؛ لما كانت اللغات العامية سائدة بين الشعب لا تزاحمها المدارس والمطابع والادباء بتآليفهم ومنشوراتهم العمية والسيارة على اللغة الفصيحة (2)

( 4 )

وليس ادل على قوة اللغة العربية من عبارة ارنست رينان ، في كتابه تاريخ اللغات السامية :

« ان من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذي بدء ، فبدات فجاة في غاية الكمال ، سلسة اي سلاسة ، غنية اي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

من اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند امة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .

وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغيير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها في كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شانها ولا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تباري ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة » .

ومن عجب ان يكون هذا راي اهل العرب فيها ثم يقوم من ابنائها من ينتقص من قدرها ويدعو الى العاميات ويحاول ان ينتزعها من مكانتها العالية .

---

(1) البيان م 1913

(2) م المشرق ص 130 م 23 سنة 1965 .

# فلسفة الحركات في اللغة العربية


## الأستاذ أحمد الأخضر غزال

مدير معهد الدراسات والابحاث للتعريب

— الرباط —


### 1 — القسم الاول :

من المعلوم ان اللسان هو العضلة الاساسية التي نستعملها داخل الفم لاخراج الاصوات اللغوية بمشاركة اعضاء اخرى خصتها طبيعة التركيب البدني بالمساهمة في انتاج الكلام على أساس تبثق نفساني بديع يتصرف في عمليات بدنية متسلسلة خلاصتها ان موجات صوتية متتالية منشؤها ذبذبات فيزيائية . تنتشر في الهواء وتدخل في الاذن فتتحول عندما تصدم العصب السمعي الى سيالة ( اي كهرباء بدنية ) تتسرب الى ملايير الخلايا الدماغية لتثير صورة سمعية تنشأ عنها صورة بصرية . ويجب ان تكون الصورتان متطابقتين تطابقا تاما والا حصل سوء الفهم . ويحدث في الدماغ أثناء التفكير وقبل الرد بالجواب بموجات اخرى ما يحدث فتنطلق من فم المجيب ذبذبات اخرى تنشيء موجات بدورها تطير في الهواء وتصدم اذن المستمع وتلتقي بعصبه السمعي فتتحول الى سيالة اخرى وتصل الى وحداته العصبية لتثير صورته السمعية يجب ان تكون صورتها البصرية مطابقة لها مطابقة تامة والا حصل سوء الفهم من جديد . ويحدث في دماغه ما يحدث من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية والاحيائية ( أي البيولوجية ) والنفسانية والروحانية والعقلية وغيرها ولا يدوم هذا كله الا مدة رمشة العين قبل ان ينبث الامر بالاجابة فتتسرب بالسيالة من جديد من المراكز والمناطق الخاصة بالكلام والسمع والبصر لتحرك بواسطة أعصابها العضلات المتحكمة في اجهزة الكلام كالحنجرة واوتارها وغضاريفها وكالفم وبلعومه وحفافه ولسانه وشفيته فيخرج الكلام بكل انواع اصواته الشديدة منها والمتوسطة والخفيفة والثقيلة والطويلة والقصيرة الى غير ذلك من غرائب خلق الله وعجائبه سبحانه تعالى عز وجل .

### الاصوات اللغوية :

واذ لا حركة ولا سكون الا باذن الله فان الاصوات التي يخرجها الانسان من جهازه لا يخرجها بدون سبب كما ان لكل ما يصدر عن الانسان ولكل ما يحصل له اسبابا منها المجهول ومنها المعلوم ، بله : كل ما يقع ويحدث في هذا العالم بمعناه العام له اسباب ، ولهذه الاسباب أسباب اخرى لها اسبابها التي تنشأ عن أسباب ، منها المجهول ومنها المعلوم الى غير ذلك من اسرار الطبيعة التي لا نعرف عنها الا القليل . وعلم الاصاتيات يخبرنا بالحركات التي تؤدي بالجهاز الاصاتي الى اخراج الصوائت ( فونيمات ) التي تشكل الحروف ويجعلنا نقف عند حدود الفوارق ومؤثراتها .

ففيما يخص صويتة الباء بالنسبة الى صويتة الهاء مثلا نعلم جميع ما يحدث اثناء التلفظ بهاتين الصويتتين . فان صويتة الباء يتطلب اخراجها مجهودا اكبر من المجهود الذي يقتضيه اخراج صويتة الهاء ، لانه يفرض العمليات الآتية :

يحدث نشاط كيميائي وكهربائي تفاعلي داخل المشتبكات ( والمشتبكات هي الامكنة التي تشتبك

فيها الاستطالات الشعرية الخاصة بالوحدات العصبية التي تنساب معها السيالة العصبية ، وهذه المشتبكات تشبه مرامم كهربائية ( اي بطاريات ) فيها عدة خلايا في كل واحدة منها مادة كيموية اساسها الكالسيوم والبوطاسيوم والصوديوم وانواع مختلفة من العناصر النادرة كالحديد والمنغانيز والبور والماغنيزيوم والكوبالت الخ ... والكل منماث ( ذائب ) في سائل خاص يسمى الخليل المراري ( الاسيتيلكوليين ) والتفاعل الكيموي الذي يحدث في هذه المشتبكات يخلق الكهرباء الخاصة بالبدن وهي السيالة . وهذه السيالة مهمتها حمل الاهاجات ( أي الطلقات العصبية ) الى الوحدات العصبية الاخرى او الى أجهزة التنفيذ المحيطة كالعضلات مثلا . وفيما يخص نقطة موضوعنا بالضبط تتسرب طلقات سيالية نحو عضلات الحجاب الحاجز لترتفع الاضلاع فتنتفخ الرئتان اذاك ويحدث امتصاص للهواء الخارجي الذي يتسرب اليهما من منفذ الانف او الفم او منهما معا ـ بعد ان حصلت في مشتبكات اخرى من الدماغ عمليات اخرى لأمر عضلات الفم بفتحه ـ فينساب الهواء مع الرغامى ( أي القصبة الرئوية ) الى القصبتين اللتين تتشعبان في الرئتين ، وذلك بعد حدوث اهاجات أخرى في الدماغ امرت عضلات الحنجرة بابعاد الوترين الصوتيين الواحد عن الآخر لينفسح المجال امام الهواء الجاري نحو الرئتين ـ ثم بعد ذلك تنطبق الشفتان الاحدى على الاخرى عندما تضغط الرئتان الهواء ليفر منهما متسربا مع الرغامى فيجد الأوتار الصوتية قد تباعدت لتسمح له بالمرور فيصل الى البلعوم وعند ذلك او قبل ذلك بقليل يرتفع الحنفاف بلهاته وينطبق على منفذ الانف ليسده مانعا الهواء من التسرب منه حتى لا تحصل الغنة في صوت الباء ثم يصل هذا الهواء الى الفم ويريد النفوذ من بين الشفتين فيجدهما منطبقتين كما اسلفنا فيصدمهما ويحاول تفريجهما فتزداد حركة عضلات الشفتين تقلصا ويزداد انضمام الشفتين شدة لمنع الهواء من الخروج ويشتد ضغط الهواء على الشفتين وعلى الشدقين وعلى الحفاف وكل هذه الاعضاء تقاوم ذلك الضغط بالتقبض والتقلص ، واذا بالوترين الصوتيين يقتربان ويشرعان في التذبذب لانشاء ما يسمى باللحن الحنجري الذي سيجعل من حرف الباء حرفا مجهورا لا مهموسا فتحصل اذاك عملية الترنن وهي فزيائية محضة ، وفجاة تتباعد الشفتان الاحدى عن الاخرى وينفلت الهواء المضغوط بعنف وشدة خارجا من الفم المفتوح وحاملا صوت الباء الجهيرة عبر الهواء الطلق في شكل موجات صوتية .

هذه العمليات كلها بتناسقها العجيب وانواع حركاتها الدماغيه والعصبية والعضلية الدقيقة هي التي تتطلبها الباء ونحن غير شاعرين .

اما الهاء فلا شيء من ذلك فيها الا خروج الهواء الحامل ذبذبات الوترين الصوتيين بينما تكاد أعضاء الفم تكون في حالة استراحة وارتخاء .

وما يحدث للباء خفيف بالنسبة الى القاف والكاف والراء والحاء والشين والصاد وثقيل بالنسبة الى الحاء والعين والغين والفاء والهمزة الخ ...

واذا اشتد خروج الاصوات الثقيلة فذلك لسبب . واذا خف فذلك لسبب ايضا أراده العقل ليعبر عن الشدة مع الاصوات الشديدة وعلى الليونة مع الاصوات اللينة ومثال ذلك : هف وقض ، فهفت الريح : هبت فسمع صوت هبوبها ، وهب الشيء : خف وهب الرجل : اسرع في سيره والهف التخفيف من الناس ، وكل شيء خفيف لا شيء في جوفه والسمك الصغار ، وسحاب هف : رقيق لا ماء فيه . بينما نرى في قض ما يلي : قض عليهم الخيل ارسلها ونشرها وقض الحائط هدمه هدما عنيفا وقض الوتد : قلعه وقض الشيء دقه وقض السير او الوتر ، سمع له صوت كانه قطع الى غير ذلك من المعاني . فكلما خفت في حف اشتدت في قض .

وهناك فكرة اخرى وهي فكرة الاستساغة ، استساغة الصوت بالنسبة للمدلول . فان كان صوت الهاء لا يتطلب نفس الجهد الذي تتطلبه القاف والراء مثلا فان اصوات الحروف وانغامها ورنينها وأجراسها موضوع استحسان او استخشان من طرف الانسان ( انظروا هنا الى الفرق بين مادة حسن ومادة خشن ، فالحاء لطيفة والخاء ثقيلة ) فلكل لطيف واليق وجميل وحلو ومطرب ومفرح ومسعد اصوات لطيفة لينة موسيقية ، ولكل خشن وثقيل وخبيث وبشع ومقلق ومحزن الخ .. اصوات تناسب تلك الصفات بمعاني اصواتها .

وهذه الافكار انتبه اليها فقهاء اللغة القدماء فخصصوا لها ابوابا مشهورة عنونوها بمطابقة اللفظ للمعنى ، ومن اشهرهم في هذا ابن جني ، كما الفوا فيها كتبا اشهرها قاموس مقاييس اللغة لاحمد ابن فارس ، الا ان علماءنا المحدثين ممن تتلمذوا على

العلماء الاوربيين اقلعوا عن هذه الابحاث النفيسة لانهم عملوا بنظريات العلماء الغربيين الذين فشلوا في بحث هذا الموضوع ولا غرابة ، لانهم لهم يحافظوا على لغتهم الاصلية فاصبحت لغاتهم خليط لهجات لا تطابق طبيعتها عبقريتهم ، اذ لكل شعب خصائصه اللغوية لا سيما في موضوع الاستاغة ، فهذا الشعب الالماني مثلا يستحسن صويتة الخاء وصويتة الراء الرنانة ، بينما الشعب الفرنسي يستقبحها . وهذا الشعب الانكليزي ينفر من « تغنين » الانكليزية ، بينما الشعب الامريكي يستحسنها — وبينما لا نرى شعبا أوروبيا يجيد صوتية الأو ( u ) اذا بالشعب الفرنسي يكثر منها — وتغلب صويتة الشين في البرتغالية ، كما تغلب عملية التقعر البلعومي في اللغة الروسية ، وما أحلى صوائت الحاء والهاء في اذننا ، وما اقبحها في اذن غيرنا الخ .. من الاعتبارات التي يرجع سببها الى اختلاف الذوق .

لهذا كله لا تصح هذه النظريات الا في موضوع لغة أصيلة بالنسبة الى شعبها الاصيل ، ومعنى هذا انها لا تنطبق على الالفاظ الدخيلة والاجنبية مع مراعاة التفاوت داخل شعب واحد ، ومن قبيلة الى قبيلة ، ومن بطن الى بطن ، ومن حي الى حي ، وحتى من عائلة الى عائلة ، ومن اسرة الى اسرة .

ولا ننتظر الوصول الى نظرية شاملة قائمة على اسس متينة في مدة قصيرة لان في هذا المطلب من التداخل بين الاصوات باعتبار الحقيقة والمجاز وباعتبار الاقدمية والاحدثية وتغير الصوائت عبر التاريخ بالنسبة الى اللهجات العربية من جهة وبالنسبة الى تغير الدلالات من جهة اخرى مما هو في الحاجة الى تضافر الجهود وتبادل الخبرات وتوفر اجهزة العد والاحصاء والترتيب والتصنيف الشيء الذي ينقصنا اليوم . وقد يتبادر الى الذهن ان هذا العلم في متناول اي شخص اذا ما اعتمد على الملاحظة والمقارنة بوسائله الخاصة . كلا ! وحذار ثم حذار ! لان اجدادنا اللغويين وهم المعروفون بالدقة والاجتهاد وسعة الباع ان أجادوا في بعض هذا العلم فان وسائل نقصتهم فتوهموا في بعضه الآخر .

واذا كانت الحروف تتكون من الصوائت فان الكلمات تتكون من الحروف . واذا كان لكل حرف معنى فان مجموع معاني الحروف يؤدي الى معنى الكلمة ومجموع معاني الكلمات يؤدي الى معنى الجملة ، وهنا قال علماءنا بمطابقة التراكيب للمعاني كذلك وقالو ان الزيادة في المبنى زيادة في المعنى . بدون اعتبار دوران الحركات في الاوزان . فبحر جمعه بحور وبحار وابحرة واباحير وابحار ، والبحر قليل التركيب لانه يدل على المفرد وجموعه أطول منه لانه يدل على الكثرة . ولكن تحديد المعاني بالتراكيب اختلف فيه كما اختلف في ما سبق لعدم توفر مواد البحث في ما وصل اليه العلم الحديث . الا انهم تركوا هذا الموضوع لتعقده واشكاله فلم يعيروا الحركات الاهمية التي تستحقها وغلبت عليهم نظرية السماع والقياس التي كانت سائدة في العلوم اللغوية آنذاك مما ادى الى ما يسمى اصطلاحا بالعامل المؤثر باعتبار متن اللغة او في ما هو ضمني باعتبار الاعراب . كل ذلك لغاية واحدة هي المحافظة على التراث اللغوي وعلى القرآن ورفع اللحن الذي كان قد انتشر بصورة مهولة . اضف الى ذلك انه كلما ثبت عند بعضهم القياس الا واضعفته شواهد سماعية شاذة مما ادى الى بلبلة الافكار واللجوء الى السماع مع الابقاء على فكرة القياس رمزيا لأن أحدا من القائلين بالقياس لم يجرؤ على تغيير ما أصبح شائعا من اللغة واحلال القياس محل السماع . فبقدر ما درسوا معاني الحروف وتوفقوا في بعض نواحيها بقدر ما فشلوا في معاني الحركات ولم يصلوا الى نتيجة علمية تجعلهم يشيدونها بمثابة قاعدة . فكلهم قالوا عن الفتحة انها اخف الحركات العربية لذلك كثرت في اللغة وقالوا عن الضمة انها اثقل من الفتحة وقالوا عن الكسرة انها اثقلهما . اذن بنوا حكمهم فيما يرجع الى الحركات على اساس سمعي لا جسماني كما فعلوا ذلك فيما يخص الحروف . وهذا الاساس السمعي هو الذي سنحاول الكشف عنه :

فجاء ابراهيم مصطفى في عصرنا الحديث والف كتابه المشهور « احياء النحو » الذي كان له اكبر صدى في هذا الميدان فعلل الفتحة بانها اخف الحركات وانها تدل على شيء وعلل الضمة بانها علم الاسناد ودليل على ان الكلمة المرفوعة يراد بها الاسناد اليها والمحادثة عنها . اما الكسرة فانها علم الاضافة ، واشار الى ارتباط الكلمة بما قبلها سواء كان هذا الارتباط باداة او بغير اداة ، وقال ابراهيم انيس بعدم معاني الحركات في الاعراب ( انظر اسرار العربية ) وقال المخزومي : ليست الفتحة علما لشيء خاص ولكنها علم كون الكلمة خارجة عن نطاق الاسناد ( الذي هو للضمة ) او الاضافة ( الذي هو للكسرة ) وان الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يهرع اليها العربي ما وجد الى الخفة سبيلا ، وهو رأي الخليل وسيبويه ، واما ابراهيم

السامرائي فانه يقول في الفتحة انها وجدت في كثير من اللغات السامية الا انه سرد أقوال « مارسيل كوهن» و « يوهان فوك » اللذين يثبتان بأن اللغات السامية كان لها اعراب ، ولم اعثر على نظر له في هذا الموضوع . اما اثبات الاعراب فانه جاء في معظم كتب اللغة من الصاحبي والمزهر الى كتب فقه اللغة الحديثة .

ومن الذين عالجوا هذا الموضوع عبد الله العلايلي الذي قال : « باب ضرب يضرب » يخضع له التلبس بحركة الفعل في الزمن الحاضر ، بينما الخمسة الاخرى فلافادة معنى زائد ... فاذا اردت الدلالة على التفوقية او التركب فسوق الدلالة على التلبس بالحال الفعلية تنقل الفعل الى باب نصر ينصر ولذا طرده اللغويون في المفاخرة والمبالغة ( فامرته فقمرته فانا اقمره ) واذا اردت الدلالة على التقلب والانسراح تنقل الفعل الى فتح يفتح ولا تلق بالا الى ما اشترطه اللغويون من ان هذا الباب خاص بما كان عينه اولامه حرف حلق فهو تقدير واهن .. واذا اردت الدلالة على التغير خلوا وامتلاء وجودا او عدما تنقل الفعل الى علم يعلم .. واذا اردت الدلالة على الرسوخ والطبع تنقل الفعل الى حسن يحسن واذا اردت الدلالة على التجزؤ ( والتقسم تنقل الفعل الى باب ورث يرث ( انظر المعجم للعلايلي ) .

وهذه الاقوال كلها اما تكرير لما قاله القدماء واما استنباط منها ، اذ قالوا اجمالا ان « فعل » يفتح العين لمعان كثيرة لا تنضبط ، منها الغلب : قامرني فقمرته اقمره اي اغلبه في القمر ، ومنها ان افعال الحدوث تندرج تحت عنوانه ـ بينما فعل يشمل افعال الغرائز والطبائع فيدل على لزوم مداولاتها لان ما يقتضيه الطبع يدوم بدوامه وتكثر فيه العلل والاحزان واضدادها .. وتجيء في غير فعل الا انها فيه أكثر منها في غيره ، وفعل للطبائع وهي الافعال اللازمة الصادرة عن الطبيعة وهي القوة الموجودة في الشيء التي لا شعور لها بما يصدر عنها ، وخص الضم بها لانضمام الطبيعة الى الذات عند صدور هذه الافعال منها كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها.

وفي الحرف الاول من الفعل قالوا : لما كانت العرب لا تبتديء بساكن فلا تكون ساكنة فاؤه ساكنة ولا تكون مكسورة ـ الا للضرورة وذلك عندما يكون الفعل اجوف وبني للمجهول او من باب فعل وهو اجوف كذلك وتضم كذلك في الاجوف من باب فعل لا غير ـ اذن لا تكون مكسورة لقوة الكسرة وهو قليل لانه يتغير وليس بثابت كالاسماء . ولا تضم الا اذا بني للمفعول . فيبقى الفتح في فاء كل فعل ماض ـ اما الحرف الاخير فهو مبني على الفتح الا اذا طرأ عليه ما يضمه أو يسكنه . وحرف الوسط فقد ذكرنا ما جاء عندهم فيه .

ونستنتج مما سبق انه ليس هناك قاعدة عامة يطمئن الفكر اليها ويركن وان السماع هو الاساس بيد انه اذا تتبعنا بازاء معالجة معاني الحروف ، معاني الحركات قد نهتدي الى شيء مضبوط ناتج عن الاحصاء من جهة وعن اعتبار قانون الجهد والكسل المهيمن على كل ما هو من قبيل تصرف الانسان في عميق حياته . اذ منذ ان ظهر الانسان على البسيطة الا وحاول وما يزال يحاول ان يوفر لنفسه أسباب الحياة بأقل جهد ممكن مما ادى به الى هذه الاختراعات العجيبة التي يريد تسخيرها لخدمته ليعيش سعيدا والسعادة لديه معناها الحصول على كل ما من شأنه ان يلبي رغائبه وحاجاته وآماله بلا تعب ولا مشقة . اضف الى ذلك ان له نشاطا عقليا جعله يتصور العالم بصورة مختلفة باختلاف الاغراض والهوايا والاماني والخيال والشعور وبما يؤثر به على الطبيعة وعلى غيره من البشر وبما يتأثر به من الطبيعة ومن المجتمع . ومن الاسباب التي دفعتنا الى تركيز البحث على معاني الحركات التناقض الظاهر في مدلولاتها .

فهذه لغة ـ العربية تبدو لك في كتابتها مبنية على اساس حروف صامتة وهذه الحروف لا تصوت الا مع علامات خاصة توضع فوقها او تحتها وهذه العلامات لا تنطلق وحدها لانه لا يوجد في العربية معنى يفاد بصوت حركي مفرد كما هو الشأن في اللغات الاوروبية حيث « أو » ( (ou) ) مثلا تفيد مدلول المكان ، او التخير يعني انه لا يوجد لفظ مكون من حركة واحدة والكلام كله صوائب ( جمع صويتة = فونيم ) مركبة من حروف مع حركاتها لا من حروف وحدها ولا من حركات وحدها فالكلام عند العربي من كلم اي جرح وشق بمعنى فتح الصمت ) فهو مكاشفة ومباشرة من الكشف اي رفع الستار عن المختبيء ومن البشر اي الشق والفتح . والعربي يعتبر ان الانسان في سكوت وسكون وهدوء بالنسبة الى العالم الذي يعيش فيه وبالنسبة اليه اي الى وضعه فيه ، فهو يكلم هذا العالم الغريب عند التعبير كما يفطر ذلك الصمت الذي هو الصيام ، لذا سمي افطارا من فطر اي شق وقطع ، الله فاطر السماوات والارض اي خالقها من فعل خلق اي شق : خلق وخرف وخرج وحرك الخ . والحركة

اما يقوم بها الانسان واما تحصل له من غيره من البشر الذي يعيش معه او من العالم الذي هو فيه بالنسبة الى عناصره من ريح ورعد ومطر ونار الخ . . . فهو اما مؤثر على العالم واما متأثر به . فالعربي ، بهذه الفلسفة التي تتجلى في لغته واضحة لانه حافظ نسبيا على أوضاعها بينما نراها اندرست في اللغات الاخرى يرى العالم في ابعاد ثلاثة كما ان لغته مبنية على ثلاث حركات ، حركة الفتح اي التأثير على العالم الخارجي وهو عمل صادر عن الارادة ، مثل ضرب وقتل وخرج ونطح وقطع واكل وفتح ودحل وصرع الخ . . وكلها افعال مفتوحة العين لان الفتحة تدل على العمل الصادر عن الفاعل بارادة منه حقيقة او مجازا ـ ثم حركة الكسر اي التأثر الذي يحصل للفاعل من طرف العالم الخارجي ، فالكسر والخسر والقصر والخزل كلها بمعنى حصول الشيء للفاعل المغلوب المقهور . فالفعل المكسور العين يدل على كل ما يحصل للفاعل بدون ارادة منه حقيقة او مجازا مثل مرض وحزن وعطش وعلم وفرح وسقم وغرق وعسر وحدب وجزع الخ . . ثم الضم ( والطم والتم وكلها تدل على التجمع والكثرة والدوام والثبات ) كـ : حسن وخشن وكبر وصغر وقرب وعرج وعور ودخن وشرف وكلها بمعنى حصول الشيء للفاعل لا حصولا طارئا أو مؤقتا كما هو في فعل بل بكثرة ودوام وثبات ونهاية . كل هذا مبني على أساس قانون الجهد والكسل الذي اشرنا اليه . فبما ان الحروف بشدتها ورخاوتها ، برخومتها وخشونتها تصدر عن الانسان للدلالة على الشدة والرخاوة والرخومة والخشونة في الاشياء وأوصافها فان الحركات كذلك يجب أن تعتبر على هذا الاساس الجسماني الا ان فكرة الثقل والخفة بالنسبة الى الاذن حسب ما ذهب اليه الاقدمون فكرة ناقصة لانها مبنية على ظاهر اللفظ لا على باطنه المحرك الذي هو النشاط العصبي الدماغي بالنسبة الى تحكم الانسان في كلامه . واذا كان ذلك كذلك فلنا ثلاث حركات تقوم بها اعضاء الكلام لاخراج ثلاثة انواع من الحركات : الفتحة والضمة والكسرة التي تتصرف في جميع اللغة ، فلماذا الفتحة تدل على العمل الارادي ؟ لان فكي الفم عند اخراج صويتة الفتحة يبتعدان الواحد عن الآخر . وما الذي يبعدهما ؟ ثلاث عضلات : الاولى عضلة قوية جدا عريضة وغليظة تسمى الماضغة Masseter وعضلة ثانية تساعد الاولى وهي الجناحية Ptérigoïdien وعضلة ثالثة هي الصدغية Temporal تساعد الثانية اذن ثلاث عضلات قوية لرفع الفك الاسفل حتى يتمكن الفم من العض والقطع للمأكولات وهذه العملية عملية اقفال الفم ـ هي أساس حياة الرجل لتلبية حاجته الاساسية ليعيش اما ابعاد الفك السفلي عن الفك العلوي فتقوم به ثلاث عضلات كذلك الا انها ضعيفة ، وهي ذات البطنين Digastrique والضرسية الامية Mylohyoïdien والذقنية الامية Géniohyoïdien فعملية الاقفال اذن بفضل عضلاتها القوية اسهل وايسر من عملية الفتح الضعيفة العضلات فاخراج الفتحة اصعب من اخراج الضمة التي تقتضي فتحا اقل من الذي للفتحة وهي اصعب بدورها من الكسرة التي تقتضي انفتاحا قليلا للفم حتى ان صويتة الكسر قد تخرج ويكاد الكفان يكونان منطبقين الواحد على الآخر وفي الحقيقة اذا قال القدماء بخفة الفتحة وثقل الضمة والكسرة باعتمادهم على ظاهرة الجمال الصوتي فذلك له اساس في اعماق الانسان الا وهو الكلام المفتوح يروق لما يوحي به من حركة ونشاط وحيوية وارادة بالنسبة الى الكلام المكسور الذي يشير الى الانهزام والخضوع والرزوخ وبالنسبة الى الضم الذي يدل على التراكم والتفاقم والسكون والركود .

واذا تمهلنا في هذه النظرية وتأملناها تأملا متئدا عميقا في حد ذاته ثم بالنسبة الى اصول اللغة لا الى فروعها واخطائها وشائعها ، وتبصرنا امورها الباطنية اعتمادا على فلسفة الحركات بالنسبة الى البدن البشري وطبقناها تطبيقا محكما ، امكننا اذاك ان نشيد نحوا جديدا منطقيا يكشف لنا الستار عن النحو القديم الاصيل الذي بنى عليه العرب القدماء لغتهم فأصبحت مطابقة لاغراض عقلهم وشعورهم واحاسيسهم اي بكلمة واحدة مطابقة للحياة ، اذا فعلنا هذا ستصبح اذاك العربية أسهل اللغات بالنسبة الى العقل اي بالنسبة الى ما يريد العقل التعبير عنه فيمكن حينئذ ان نسترجع ملكة اللغة العربية التي ضاعت وبضياعها انزوت في السماع اي في الحفظ بخطئها وصحيحها بدون معيار للتمييز بين الصالح والفاسد وبين التطور الدائر المتكرر والتقدم القاصد الهادف الى الكمال .

**الامثلة :**

خذوا مثلا مادة « دخن » التي جاءتنا منها الابنية الثلاثة : دخن ودخن ودخن ، فانكم تجدون ما يلي :

دخن ( بفتح العين ) الدخان : اذا سطع وارتفع ، وهنا تشخيص للدخان وكأنه يرتفع بارادة منه .

ودخنت ( بفتح العين ) النار : ارتفع دخانها ( اي اطلقت الدخان فارتفع . وهنا تشخيص كذلك لفعل الفعل ارداديا ) .

ودخنت ( بكسر العين ) : القي عليها حطب فأفسدت فهاج دخانها ( والمعنى واضح ، أي حصل لها الدخان وأصيبت به فأصبح الدخان يحصل لها ويؤثر عليها ) .

ودخن ( بكسر العين ) الطعام واللحم وغيرهما : اذا اصابه الدخان في حال شيه أو طبخه حتى تغلب رائحة الدخان على طعمه ( وهنا معنى الحصول واضح ) .

ودخن ( بكسر العين ) الطبيخ اذا تدخنت القدر ـ وشراب دخن ( بكسر العين ) : متغير الرائحة ( اي بالمعنى الحقيقي رائحته هي رائحة الدخان وبالمعنى المجازي : لم تبق رائحته الاصلية فتغيرت واطلق اللفظ على سبيل العموم ) ـ

ودخن ( بفتح العين ) الغبار : سطع وارتفع ( أي كما يسطع الدخان يسطع الغبار ) ـ

ودخن ( بكسر العين ) خلقه : ساء وفسد وخبث ( بمعنى حصل لها السوء والفساد والخبث ) ودخن ( بضم العين ) النبت ودخنت ( بضم العين ) الدابة دخنة مثل دخن ( بكسر العين ) ( يستخلص منه الثبات والدوام على حالة الدخنة أي الكدرة يعني صار نهائيا في ذلك اللون أو لم يستطع الصبر على كثرة الدخان ) .

واذا اخذنا مادة اخرى فيها الابنية الثلاثة مثل « ش ر ف » ومعناه العلو نرى ما يلي : شرفه ( بفتح العين ) : غلبه في الشرف . وشرف ( بفتح العين ) الحائط : جعل له شرفه ، وشرفت ( بفتح العين ) الناقة : صارت شارفا ( أي على سبيل التشخيص علت وارتفعت في السن ) وشرف ( بكسر العين ) الرجل : دام على اكل السنام ( بمعنى غلبت عليه شهوة اكل السنام اي الشرف وهو السنام أصلا من نفس المادة ) وشرفت ( بكسر العين ) الاذن وشرف ( بكسر العين ) المنكب : ارتفعا اي شرفا ( بكسر الراء) اي صار مرتفعين ـ وشرف الرجل ( بضم العين ) صار ذا شرف ( أي في حالة ارتفاع وعلو تبتت فيه واصبح يتصف بها ) وشرفت ( بالضم ) الناقة : صارت شارفا ( والفرق بين شرفت الناقة ( بالكسر ) وشرفت ( بالضم ) واضح فالاول ملحوظ الوصف بعد عدمه والثاني كثرته وتراكمه ودوامه حتى اصبح في أعلى درجة منه ) ).

وفي مادة « حزن » حزن ( بالكسر ) حزنا وله وعليه : ضد سر اي حصل له الحزن ـ وحزنه (بالفتح) ضد سر ( لغة تميم وهي عندي أقرب الى الاصل العربي من لغة الحجاز ) ، ولم يرد « حزن » ( بالضم ) في الاستعمال تلافيا للطيرة مع أن مصدره حزونة بقي مستعملا بالمعنى الحقيقي وهو غلاظة الارض وشدتها .

وفي مادة « بثر » بثر وبثر وبثر بالثليث وجهه خرج به بثر : ( والمفهوم الضمني المعاقبة بين الثاء والزاي : « بزر » والمعاقبة بين الثاء والصاد : بصر ـ ومراعاة القلب المكاني : ثبر ـ فيأتينا منه معنى القروح ومعنى الكثرة ومعنى نوع من الارض . واذا وقفنا على المعنى الاول فمفاده : بثر (بالفتح) وجهه : أخرج بثورا . وبثر (بالكسر) وجهه حصلت له بثور . وبثر ( بالضم ) وجهه وهو : اصبح ذا بثور فهناك تدرج واضح في المعاني بين فعل ( بالفتح ) وفعل ( بالكسر ) وفعل ( بالضم ) وذلك في الافعال كلها .

وباعتبار هذا كله نصل الى الحقيقة الآتية وهي ان العربي كان ينطق حسب ما في دماغه من أغراض . واللغة العربية ـ داخل حدود نظريات وقواعد ثابتة ـ اداة تمتاز بطواعية للتعبير عن جميع ما يختلج الفكر لا ميل لها في أي لغة من لغات هذا العالم .

# التعريب والتفتح في المغرب العربي

للدكتور محمود عبد المولى

«تونس»

يتحدث الناس كثيرا ، هذه الايام عن الانفتاح أو التفتح ، حتى غدت هذه الكلمة مبتذلة واصابها ما أصاب بعض العملات ، اثناء الازمات الاقتصادية، من تضخم قد قضى على جزء ضخم من قيمتها الشرائية .

ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان كلمة انفتاح أو تفتح او تعصير ، اصبحت ، في قاموس البعض ، تعلة لاتهام كل من انبرى للدفاع عن حظوظ اللغة والثقافة الوطنية ، بالتحجر والزماتة والانطواء على النفس ...

وبهذه المناسبة ، ونحن نضع بعض ملاحظاتنا حول « جدلية التعريب والتفتح » أو جدلية «الاصالة والتفتح » — نؤكد لادعياء الانفتاح والتفتح والتعصير — دون ذكر اسمائهم — ان كل من يعتز بلغته واصالته الثقافية والقومية بطريقة ، ثورية وموضوعية ، بامكانه ان يستفيد من عملية الاخذ والعطاء مع الحركات الفكرية والعلمية في العالم . وذلك على شرط ان تكون اللغة والاصالة الحضارية والاجتماعية هي الاصل والمنطلق ، لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الاجنبية . لذلك لن يتم هذا الاخذ والعطاء الخصب الا في شروط موضوعية معينة منها :

— تحريك قيمنا الحضارية الخالدة — وتراثنا الثوري الحافز ، وربطها بالحركات الفكرية والعلمية المتقدمة في عالم القرن العشرين .

— ان التفتح شطر اللغات الحية والحضارات المتقدمة يجب أن يكون مدروسا — لا متروكا للصدف ، لكي يلعب دوره المكمل الفعال لثقافتنا ولغتنا واصالتنا .. والا انقلب الى خطر ماحق يهدد شخصيتنا وكياننا الاجتماعي والثقافي ، بالمسخ والذبذبة ... كما نرى — لا تناقض بين قيمنا القومية واقيم الاممية في مضمار الاصالة والتفتح . نستطيع أن نأخذ عن الغير العلم والتقنية والثقافة المتقدمة وذلك بتعلم بعض اللغات الاجنبية الحية بدقة واتقان — اذا أمكن — وفي نفس الوقت نتمسك بمقومات شخصيتنا العربية والاسلامية حيث تكون اللغة العربية والفكر الثوري من عناصرها الاساسية، هذا في رأيي هو الانفتاح المنشود . اما الاقتصار فقط على الاخذ من فرنسا وحدها عن طريق لغتها وثقافتها ، فهذا هو التحجر والذوبان معا .

**انه التحجر** لان فرنسا هي في الواقع تعتبر في خصوص بعض الميادين العلمية والتكنولوجية متخلفة بالنسبة لعدد من البلدان المتقدمة كأمريكا وانجلترا وروسيا والمانيا ... الا انها تعتبر طبعا — متقدمة تقدما مهولا — بالنسبة للبلدان المتخلفة جميعها . اليس من الافضل لبلدان المغرب العربي ان تستفيد من اختصاصات — هي في حاجة اليها — ولا تجدها في فرنسا بل في بلدان اخرى متقدمة ، سواء كانت في الشرق الاشتراكي او الغرب الرأسمالي ..؟ اذا كان الجواب بنعم ، فلا شك أن تعلم لغة من اللغات

الحية كالانجليزية او الروسية او الالمانية ... امر لازم .

ان انفتاح مغربنا على العالم المتقدم – عن طريق لغة او لغتين من هذه اللغات الحية سيساعده – دون ريب على الخروج من معركة التخلف بنجاح للانطلاق بعد ذلك – الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاشعاع الثقافي والعلمي والتكنولوجي ...

**وهو ذوبان** وانحلال لشخصيتنا وخصوصياتنا القومية والحضارية اذا استخدمنا اللغة الفرنسية كلغة شبه رسمية واهملنا اللغة العربية .. ان الانفتاح على الثقافة الفرنسية او على أية ثقافة اجنبية اخرى يجب أن يمر عن طريق عروبتنا كما اكد ذلك العالم الاجتماعي الفرنسي جاك بارك (Jacques Berque) في عبارته الشهيرة :

«La francité du Maghreb passe par son arabité»

لذلك طالب المثقفون فى تونس والمغرب الاقصى قبل الاستقلال وبعده بالتعريب والاصالة الثقافية لا لاسباب عاطفية ، وانما لانه المطمح الطبيعي والشعبي ، والسبيل الوحيد الى تحقيق ذاتيتنا ونهضتنا ، والمنطلق السليم نحو وحدة مغربنا العربي كخطوة نحو وحدة وطننا الاكبر ...

الواقع ان موضوع الاصالة والتعريب هو موضوع له حساسية خاصة ويتطلب منا قدرا كبيرا من الموضوعية والشجاعة. قد يحدث التباس فى الاذهان، ونحن نثير الاسئلة والتساؤلات حول قضية الاصالة والتعريب ، قضية الساعة فى مجتمعنا ، هذا الالتباس يتمثل فى أن الغرض من اثارة مشكلة التعريب فى تونس او الجزائر او المغرب الاقصى هو احراج المسؤولين أو التهجم على هذه السياسة التربوية او تلك . لكن الذى حدانا الى معالجة هذه القضية المصيرية هو حرصنا على بناء المغرب الكبير على أسس متينة ، كخطوة مرحلية نحو بناء الوطن العربي .

فالواجب يفرض علينا النقد النزيه والموضوعي لجوانب حياتنا اللغوية والثقافية وغيرها كلما شعرنا بأن هناك خطرا يهدد كياننا . ان اسلوب السكوت والتفاؤل الكاذب هو بمنزلة الخيانة لانه يقضي على امل شعوبنا فى التقدم والتحرر والوحدة .

نحن لا ننكر ان موضوع التعريب والاصالة هو موضوع خطير ، قد حفت به ملابسات سياسية واديولوجية ونفسية لا تخفى على احد . واذا صارحنا انفسنا وضمائرنا : فهو . فى حقيقة الامر قضية مصيرية تتحكم فيها السياسة والاقتصاد ، بحيث تتجاوز امكانيات رجال الفكر والتربية والثقافة فى المغرب العربي . والراي عندنا ان الحل الجذري لمشاكل كثيرة يتخبط فيها مجتمعنا المغربي اليوم ، يكمن فى تبني سياسة التعريب الشامل والمرحلي . فهل لنا ان نعرب ؟ وهل لنا ان نجعل من لغتنا القومية ، لغة المدرسة والادارة والشارع ، والانتاج الفكري والعلمي ...؟

اذ لا يمكن ، اطلاقا عزل المفهوم السياسي لعملية التعريب عن مفهومها الثقافي ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة !؟

لذلك ونظرا لتشعب قضية التعريب ، باعتبارها قضية سياسية ومجتمع ، وحضارة ، ولغة ، وشعب ومثقفين ، وهي مطروحة اليوم بثقلها الكامل والملح على الصعيدين الرسمي والقومي ...

لذلك ونظرا لكل هذه الظروف والملابسات الاديولوجية والنفسية التى تحف بالتعريب لا يسعنا الا أن نؤكد الحقائق التاريخية التالية :

اننا لا ننكر ابدا المشاكل والصعوبات النفسية والمادية التى تعرقل سير قطار التعريب ، خاصة ونحن نعلم ان الاوضاع الاستعمارية التى رزحت تحتها بلادنا ، قد فرضت علينا واقعا ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا متخلفا . ان هذه التركة الاستعمارية الثقيلة والبغيضة قد عكست على حياتنا الاجتماعية ارتباطا لغويا وثقافيا خطيرا .

كان هدف الاستعمار فى العصور الحديثة سواء كان فرنسيا او انجليزيا يرمي الى تمزيق وحدة الامة العربية وتقسيم الوطن العربي الى دويلات وكيانات سياسية عديدة ، وذلك لغاية السيطرة على مقومات هذه الامة بجماهيرها الكادحة ، اقتصاديا وثقافيا ولغويا ...

وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية الادماجية فى المغرب العربي الكبير بخاصة ، هو تجهيل الجماهير بلغتها وتاريخها وواقعها ... ومن هنا كانت وضعية شعوبنا المغربية مطابقة للحقيقة العلمية التى صدع بها ، منذ قرون عديدة العلامة ابن خلدون وهي تؤكد بأن « الامة الغالبة تفرض على الامة المغلوبة حضارتها ولغتها ..» .

لذلك فواقع اللغة العربية يعود تفسيره لظروف تاريخية وحضارية . بدات اثر عصور الانحطاط والظلام ، وبخاصة فى بداية العهد التركي ؛ ثم تطورت الامور عندما حاولت عائلات دخيلة محاربة اللغة العربية وذلك كخطوة نحو تتريك الاقاليم العربية . وكلمة تتريك هي كلمة دارجة حتى اليوم فى بعض اللهجات العربية فى المغرب وتونس وتعني مثلا العبارة : « يحب يتركني » معناه « يريد ان يهلكني » (1) . من هنا ندرك العلاقة المعنوية بين عملية مسخ العرب الى اتراك عثمانيين . وعملية الهلاك والاهلاك .

ان عملية التتريك هذه قد نادى بها — كما نعلم — وحاول تطبيقها دعاة الطورانية من جماعة تركيا الفتاة . اما فى المغرب باقطاره الثلاثة ؛ فقد قامت محاولات شرسة على يد الاستعمار الفرنسي ؛ ترمي فيما ترمي اليه ؛ الى الفرنسة والادماج ، واحلال لغة المستعمر وثقافته محل اللغة العربية وثقافتها .

لذلك اكد المثقفون المغاربة — مرارا وتكرارا — ان لغة المستعمر ؛ بما تحويه من ثقافة وتقاليد لا تتماشى مع متطلبات السيادة الوطنية ولا تنسجم مع مقومات الشعب العربي فى تونس والمغرب الاقصى والجزائر . وانما هي — بالعكس من كل ذلك — تمسخ او بامكانها ان تمسخ — شخصيته وتلهيه عن مشاكله الحقيقية .

---

(1) كلمة « **تركة** » بتشديد الراء معناها فى عامية المغرب الاقصى : سلب او نهب كل ما يملكه ، وكان « **المترك** » (بفتح الراء وتشديدها) مات فصارت **تركته** تحت رحمة السالب . ومن هنا يتضح اشتقاق الكلمة العامية من الفصحى ، كما يتضح من استعمالها فى المغرب الاقصى بالمعنى الذى اشرت اليه .

# اللغة العربية في مرآة قواعدها القومية

الأستاذ أنطون شال (1)
جامعة هايدلبرج
ترجمة الأستاذ إدريس الخطابي

اذا فتحنا كتابا من الكتب الحديثة التي تعالج قواعد اللغة اللاتينية لنستعلم عن انواع الكلمات المكونة للجملة وجدنا التقسيم كما يلي: الاسم والفعل والجزيء ( او الأداة ) (Partikel) . والعلامات التي يستند اليها هذا التقسيم ذات طبيعة عريضة اي انها ليست من صميم الكلمة : فالأسماء المعربة والافعال المنصرفة كلمات قابلة للتغير . واما باقي الكلمات غير المتغيرة فيشملها اللفظ العام : جزيء . غير أن علامات التمييز هذه لا تفي بالغرض اذا اردنا أن نقسم الجزيء الى اقسامه المختلفة . ومن ثمة ادخلت فكرة وظيفة الكلمة في الجملة وتفرع الجزيء الى حال وجار وعطف ونداء . فنحن نرى اذن ، ان قائمة انواع الكلمات او اقسام الكلام ، قد اشتملت على الفاظ ذات طبيعة متباينة تباين وجهات النظر النحوية عبر التاريخ.

واذا رجعنا الى ما قبل اليوم بحوالي قرنين اي الى زمن وضع القواعد النحوية الاولى في البلاد الغربية ، والقينا نظرة على « فن القواعد اليونانية » لمؤلفه ديونيزيوس تراكس (Dionysios Thrax) الفينا فقرته الحادية عشرة تقول من بين اشياء اخرى: « ينقسم الكلام الى ثمانية اقسام : اسم وفعل واسم مفعول واداة تعريف او تنكير وضمير وحرف جر وحال وعطف » . اما النحويون الرومان فاننا نجدهم يتخذون المصطلحات اليونانية مترجمة بالحرف الواحد . ولذلك ظل نموذج ديونيزيوس تراكس عالقا بالأذهان لدرجة ان الاقسام الثمانية ظلت قائمة على الدوام مع تغيير بسيط وهو احلال حرف التعجب محل اداة التعريف التي لم توجد في اللاتينية . وقد تولى النحاة الثقات، مثل دونات (Donat) وبريشيان (Priscian) نشر هذا المذهب طوال القرون الوسطى والزموا به الناس . اما التقسيم الثلاثي الذي أوردنا في مطلع بحثنا فلا يوجد له اثر واحد في هذا الوقت على ما اظن .

وقد اسس يوهانس رويشلين (Johannes Reuchlin) سنة ( 1506 ) في بفورتسهايم (Pforzheim) قواعد اللغة العبرية عند المسيحيين في كتابه « مبادىء العبرية » . وفي الصفحة (551 ) يكتب عند تعرضه لأقسام الكلام

(1) جاءنا هذا البحث من مؤلفه من المانيا الاتحادية ورغم بعض الآراء الغريبة التي جاءت فيه فاننا ننشره حتى تكون على علم بكل ما يكتب عنا مهما كانت نوعيته او قيمته وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد » . وهو عبارة عن كلمة القيت بمناسبة تولي المؤلف الاستاذية فوق العادة للغات السامية الحديثة والاسلاميات في جامعة هايدلبيرج في 21 ديسمبر 1971 .

العبري : هنالك ثلاثة اقسام : الاسم والفعل والآتي بمعنى ـ نقول اليوم الجزيء ـ ، ويشتمل الاسم ايضا على الضمير واسم المفعول . ويشتمل الحرف على الاربعة الآتية : الحال والعطف وحرف الجر والتعجب. نرى أن تقسيم كتابنا الحديث للقواعد اللاتينية يتفق مع كتاب رويشلين اتفاقا مدهشا . والجدير بالذكر ان رويشلين والعلماء المسيحيين المعارضين له اخذوا فكرتهم حول اقسام الكلام عن الاعمال النحوية اليهودية القومية حول اللغة العبرية ، غير ان اعمال علماء اليهود النسقية الاولى كتبت باللغة العربية والفت تحت تاثير وحسب نموذج القواعد النحوية العربية القومية .

قادتنا هذه الفارة الصغيرة في تاريخ النحو الى علم هيمن في عهد لمعان الثقافة العربية الاسلامية . وتاثير هذه الثقافة وبقائها في علوم الغرب الطبيعية والرياضيات وعلم النجوم ودورها الوساطي بالنسبة للتراث اليوناني معروف معرفة عامة . غير ان الاثر المتواضع لهذا العلم العربي الاصيل في وسط كتاب من كتب النحو الحديثة لم ينظر اليه بعد ، من هذه الزاوية .

ولم اجد في نطاق عملي ، شعبا من الشعوب القديمة ، عني بلغته وفكر فيها وحاول تنسيق تاملاته حولها الا الشعبين اليوناني والهندي . اما الدور الذي قام به النحو القومي اليوناني فقد سبق ان اشرنا اليه واما الهنود فقد تجاوزوا دقة اليونان في هذا المضمار واظهروا اصالة في ابحاثهم ووصلوا الى القمة بمؤلفات بانيني (Panini) اواسط القرن الاول قبل المسيح . وقد مهدوا بالفعل الطريق امام الباحثين الهندوجيرمانيين في الدراسات المقارنة بين اللغات. ولم تتم الانجازات العظيمة الرائعة في هذا العلم الا بعد دراسة السانسكريتية والبحوث الدقيقة التي قام بها النحويون الهنود الذين القوا الضوء على هذه اللغة واوضحوا غوامضها الدقيقة .

ويقع النحو القومي العربي ، في المكان والزمان، موقع الوسط بين النحوين الهندي واليوناني وهذا الموقع هو الذي جعل الناس يتساءلون الى الآن ، عما اذا كان النحويون العرب قد استعانوا بنماذج اجنبية ونظرا لهذا الوضع ولعدم تمكن العلماء من اعادة المراجع الى اصولها بالدقة المطلوبة اصبح من المستحيل الفصل في هذا الامر ، اذ ليس من المتوقع ان نجد قبل الخليل ، الذي يعتبر المؤسس للنحو العربي ، مصادر اقدم منه للرد على هذا السؤال . وفي القرن الثاني الهجري اي في نهاية القرن الثامن الميلادي ، طلع على الناس بنيان عجيب ، هو بمثابة صرح لقواعد اللغة العربية . والذي شاد هذا البناء الشامخ هو تلميذ الخليل الفارسي سيبويه . واهم اعماله النحوية هو مؤلفه المسمى « الكتاب » . وفيه اول عرض شامل منسق للغة العربية وهو بالنسبة للنحويين العرب « الكتاب » الذي لا يزال ثقة الى يومنا هذا .

اما نقطة الانطلاق بالنسبة لاكثر العلوم العربية تفاوة فتدور حولها مجموعة من الأساطير. فقد كان ابو الأسود الدؤلي ـ احد انصار علي بن ابي طالب آخر الخلفاء ـ قاضيا في البصرة وهي المدينة الكبيرة التي كانت في اول امرها معسكرا للجنود العربية ، والموجودة اليوم في جنوب العراق . وقد سئل ابو الأسود الدؤلي: كيف تعلم العلوم النحوية فاجاب بأن الخليفة نفسه هو الذي علمه اياها ولم يكن ابو الأسود يعير معلوماته اهتماما كبيرا حتى امره حاكم العراق بوضع دليل للغة العربية ليتمكن الجمهور من تفهم القرآن كتاب المسلمين المقدس . ولم يبد ابو الأسود رغبة في الانصياع لهذا الامر بيد انه سمع يوما احد الناس يتلو جزءا من السورة التاسعة من القرآن ( سورة التوبة : المترجم ) كما يلي : « ان الله بريء من المشركين ورسوله (1) » بدلا من ورسوله كما هي القراءة الصحيحة . والقراءة الخطا ليست اقل من الكفر لان معناها ان الله بريء من المشركين ومن رسوله . فذهل ابو الأسود من هذه القراءة وقرر على الفور تلبية امر الحاكم .

ليس من الصعب معرفة النواة التاريخية لهذه الاسطورة ، فالمسالة تدور حول المحافظة على تراث مقدس اي حول وقاية ما يعتقده العرب انه كلام منزل من عند الله بلغة عربية خالصة نقية . فكانت اذن الاسباب التي اثارت عند العرب الانتباه الى القواعد النحوية هي اسبابا دينية . كان من الواجب ان يصان القرآن عن الاخطاء في افواه العديد من الذين كان عهدهم بالاسلام حديثا . والاتصال باللغات الاجنبية في البلاد المغزوة هو الذي نبه العرب الى الاعتناء بلغتهم وليس هذا السبب اقل الدوافع لوضع النحو القومي ، مع العلم بأن الاتصال باللغات الاجنبية في البلاد الغربية

(1) بالعربي في الاصل .

في نفس الزمن ـ اي في القرون الوسطى ـ لم يؤد الى الاشتغال باللغة القومية . فاللغة العربية عرفت درجات مختلفة من النمو وكانت هذه اللغات المختلفة المستويات تتنازع الصدارة قبل ظهور محمد ( صلى الله عليه وسلم ـ المترجم ) . فمن ناحية توجد لغة دارجة منقسمة الى لهجات متباينة ، ومن ناحية اخرى اللغة العربية العتيقة الآتية من القدم ، لغة راقية او لغة الادب . ولا نستطيع اليوم تحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما هذه اللغة الراقية ولا متى اعترف لها بالصدارة ولا متى اعتبر استعمالها ملزما بشروط معينة ، والشيء الذي لا يتطرق اليه الشك هو أن هذه اللغة كانت في زمن محمد ( صلى الله عليه وسلم ) متميزة عن اللهجات الاخرى واصبحت لغة تعم جميع القبائل فيما يخص الشعر والاحتفالات ذات الأبهة والاحترام . وقد احتفظ الشعر العربي القديم ـ بأوزانه الصارمة البنية ـ لهذه اللغة بثقاوتها . واهمية الشعر ـ كبديل للفن التشكيلي ـ الذي كان مستحيلا في الحياة البدوية ـ جعلت من الممكن ابقاء هذه اللغة حية على الدوام .

والتناقض بين لغة العامة ، ولغة الشعراء والقرآن كان لا بد أن يعمق التفكير في اللغة القومية . ومن المؤكد أن الذين اتخذوا تلاوة القرآن مهنة كانوا في نفس الوقت نحاة . فلم يكن تأويل القرآن الذي كان ينظم الحياة العامة والخاصة ممكنا الا بمعرفة دقيقة للغة الراقية . وفي المدينتين الطموحتين الكوفة والبصرة ـ بأدنى العراق ـ نشأت مراكز للعلوم النحوية ، ربما اقتصر هذا العلم بادىء ذي بدء على مراقبة كلام البدو وجمع وشرح الاشعار والروايات الخاصة بالحروب القديمة والامثال والتقاليد ، فنعرف ـ مثلا ـ ان معظم اعمال الكوفيين مجرد تجميع . أما البصريون فيظهر انهم بكروا بترتيب المواد المتواترة والممثلان الرئيسيان لمدرسة البصرة الخليل وسيبويه، هما اللذان أتما تنسيق النحو العربي .

نعرض على القارىء فيما يلي تأملا قصيرا عن النظرة الاسلامية للعلوم :

عرف السيوطي العالم العربي المشارك كل العلوم بانها جزء من المنقول المأثور الذي عولج بعقل وتدبر . ويشتمل هذا التعريف على ركني كل عمل علمي : احد هذين الركنين هو المنقول اي المادة المأثورة القابلة للمعالجة والتنقيح ، والركن الثاني هو عقل العالم المنقح مع موهبته البنائية والتركيبية . ويمكن أن يكون هذا التعريف نفس تعريفنا نحن الغربيين ، مع العلم ان العلوم الاسلامية ومعها النحو العربي القومي قد اتجهت وجهة متباينة تمام التباين عن وجهة العلوم الغربية . فنحن نحاول توسيع المادة المأثورة وتنميتها حسب الامكان ، ففي مادة التاريخ ـ مثلا ـ نجتهد دائما في ضم مصادر أخرى حتى نستطيع تحديد اسباب مصيرنا بطريقة ادق . **وفي العلوم اللغوية نسعى الى مضاعفة تعميق نظرتنا حول تطور اللغة وذلك بواسطة طبع أمهات الكتب والبحث في اللغة الدارجة** . نعم نقيم ـ نحن ايضا ـ نظرياتنا على اساس المواد الموجودة بين ايدينا ، واذا تغيرت هذه المواد او وجدت مواد جديدة يمكن أن تتغير النظريات تحت ظروف معينة تغيرا حاسما . غير أن العلوم الاسلامية نمط آخر : فالمادة المتواترة قد اكتملت ووصلت الى حدودها في زمان معين في الماضي . فبعد أن أقام اللغويون العرب نظريتهم النحوية على اساس الادب العربي المعترف به آنذاك أصبحت هذه المادة المحدودة ، المقياس الوحيد لبناء النسق النحوي .

ولأجل هذا النموذج الذي وضعه النحويون الاوائل لم يؤخذ بعين الاعتبار مع القرآن الكريم الا الشعراء الاقدمون والنصوص النثرية القديمة القليلة من بينها الروايات الخاصة بأيام المعارك التي خاضها العرب الجاهليون والأمثال القديمة واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، أما الأدب النثري الجيد الذي ازدهر بغزارة بعيد عهد الأمويين والذي هو جزء مهم من الادب العربي النحوي فلم يستعن به لبناء قواعد اللغة . والسبب في اهماله وفي عدم محاولة تلاميذ سيبويه استخراج الأمثلة النحوية من النثر يرجع الى قدرة الاسلام على التشبث بالمعطيات الاولية . واذا طبقنا ذلك على اليونان فانه يعني حصر استخراج النماذج النحوية على مؤلفات هوميروس والشعراء الاقدمين واعمال هيرودوت (Herodot) وتوكيديدس (Thukydides) وبما أن لغة القرآن كانت هي اللغة القانونية والمحترمة الوحيدة وبما أن اللغة العامة كانت تختلف عنها في التشكيل وتركيب الجمل كان من الطبيعي أن يرفض العرب رفضا باتا استعمال ظواهر اللغة العامة في بناء النسق النحوي .

ولقد ادت الاعتبارات الدينية هنا الى تقلص المادة المتوارة وظهرت فعلا وفي زمن مبكر معارضة لهذه الفكرة وذلك في القرن الثاني الهجري وكانت المعارضة تتوخى توسيع المأثور اي الزيادة في المادة المستعملة لبناء النسق النحوي . لكن سرعان ما انتصر

مذهب المتواتر المعهود على مذهب التوسيع والتجديد وحتى فى النحو الذي ما كنا نتوقع فيه وجود علاقة بالدين ينعكس النزاع المتواصل الذي نلاحظه فى التطورات المذهبية والشرعية فى الاسلام . وفى هذا النزاع انتصر انصار القديم المتصلبين . ولهذا السبب رفض ممثلو النحو القومي العظام ، الانشغال باللغة العامة او تصحيح اخطائها . ولم يألوا جهدا فى الحفاظ ــ بغيرة ــ على القانون الذي هو نموذج الاعمال الادبية العظيمة وعدم توسيعه،ولهذا استعملوا دائما فى مؤلفاتهم نفس الادلة والامثال. وبذلك اتخذ النحو صبغة « علم معيار » واخيرا اصبح هذا المعيار والعبارة « ممنوع » سببا فى أن اللغة العربية الفصحى ظلت هي هي ، فى اساسها ، منذ ثلاثة عشر قرنا .

واذا عرفنا أن النحو العربي لم يتزود بأية مادة حية من اية لغة حية ، سهل علينا أن ندرك كيف غدا هذا العلم بالضرورة ، شيئا فشيئا ، جامدا مثل المومية . ويمكننا ان نأخذ فكرة عن ذلك فى رواية من روايات الشاعر الفارسي الشهير سعدي فى ديوانه « جنة الورد » فى القرن الثالث عشر . ففي احدى رحلاته الى تركستان الشرقية ــ التي هي ولا شك ، ثمرة خياله الشعري ــ راى سعدي فى مسجد كشكار طالبا منصبا بحماس على باب من ابواب كتاب الزمخشري . ويجب هنا ان استطرد لاقول ان النحو العربي يشرح حالات الاعراب فى جمل نموذجية صغيرة وتدرس نهايات الاعراب مرتبطة بنصوص مفترضة لا يحاد عنها قط ، ولذا سمع سعدي الطالب يقرا : ضرب زيد عمرو وعمرو هذا مفعول وزيد فاعل . وحدث أنه فى السنة نفسها عقد حاكم توران سلما مع القيصر الصيني بعد حرب طويلة . وقال سعدي للطالب الشاب فى سخرية خفية :

لقد تصالح توران والصين ، وما زال زيد يضرب عمرو . والى يومنا هذا يتضارب عمرو وزيد فى جميع المدارس التي يلقن فيها النحو العربي على الطريقة القديمة .

هذا ولم يعتبر المسلمون قط اللغة شيئا متطورا ناميا كما لم يتفهموا الفرق بين اللغة والكتابة التي هي شيء عارض مخترع والسبب فى ذلك هو القرآن أيضا فمعنى كل كلمة فى نصه المأثور لا يوجد فى صورته الملفوظة فقط ولكن يوجد أيضا ــ بل اكثر منه ــ فى رسمه المكتوب الذي تناقله الاجيال فى شكل معين . فللرسم والكلام نفس الوزن . وقد بنيت القواعد النحوية على اساس نص القرآن اي حسب صورة الرسم كما ترى بالعين لا حسب صورة اللفظ كما تسمع بالأذن . فأصغر جزء فى الكتابة هو الحرف اما فى العربية فهو الحرف المتحرك فقط (1) ولذلك يسوي فى الاصطلاح النحوي اللفظ والحرف المتحرك والمدلول الذي تدل عليه الكلمة (Silbe) ، والذي هو اصغر جزء فى الكلام الملفوظ المسموع ، لم يكن معروفا عند النحويين المسلمين فى القرون الوسطى ولم تعرف اللغة اصطلاحا عليه ، وبما أنه لم يعمل الا حسب صورة الرسم فكان المدلول الذي تدل عليه الكلمة (Vocal) ينقص فى اللغة . ولم تدخل علامة الحركة فى اللغة الا عند ما ادخلت العلامات الدالة على قصر الحركة . ولم يحدث ذلك الا لأن العرب يرمزون الى الحركة بعلامة خاصة . والشيء الذي يثير الاستغراب هو أن نظرية صوتية تشبه نظريتنا قد بنيت على هذا الاساس . بل تطورت منها الأوزان الشعرية وذلك بدون أن يكون المفهوم من الكلمة (Silbe) معروفا .

وبالاضافة الى معنى ضيق للمادة لا نفهمه نحن الغربيين ، فالمجرى الخارجي الذي اتخذته النظرة الى اللغة القومية فى العالمين الغربي والاسلامي متباين تمام التباين . فاليونان ، وهم أساتذتنا فى العلوم النحوية ، كانوا ، قبل اكتشاف العلوم المختلفة ، قد عنوا كثيرا بالعام الذي يكمن وراء الخاص واهتموا بمبادىء الفلسفة ، وبنوا بالفعل صروح المنطق ، وفى اطار هذا الاخير وجدت المادة التي تستند اليها العلوم المختلفة وخصيصا اللسنيات ارضا صلبة . فالكلام

---

(1) تنقسم الحروف الأبجدية عند الغربيين الى (Konsonant) بالفرنسية (Consonne) وهي ذات المخارج و (Vocal) بالفرنسية (Voyelle) وهي ما يسميه العرب الحركات كالفتحة والكسرة والضمة والسكون ــ الفرق بين العرب والغربيين هو أن الحركات عند الغربيين (a, e, i, o, u, y) تعد من الحروف وتكتب الى جانبها ــ ولا تعد فى العربية من الحروف ولا تكتب بالضرورة معها وانما توضع فوقها أو تحتها اذا اشكل النطق ــ ( المترجم )

(2) يعبر عن هذه الكلمة اليوم بـ مقطع ( المترجم )

والفكر عند اليونان يشتملان على نفس القوانين المنطقية . ولذلك كان من الممكن ادراك الاثنين فى نفس المنهج الفكري . فيتساوى عندهم الحكم والجملة ؛ والمدلول والكلمة . اما فى الاسلام فقد تطورت الامور تطورا مضادا على طول الخط ؛ حيث جمع المسلمون ؛ اولا ، المادة اللغوية التي هي موضوع البحث والتنظيم ، ثم كونوا منها بعد ذلك نظرية لغوية ولا نقول ان هذه النظرية الاساسية غير منطقية ولكنها ليست ، كما عند اليونان ، منطقية صرف ، فالنحويون القوميون العرب ينظرون مع وعبر الشكليات والقالب الى محتويات ومعاني الجمل . واليونان ومعهم الغربيون اليوم يرون العام وراء الخاص . اما النحو الاسلامي فلم يستطع ان يخرج من الخاص الى العام الا بشق الانفس . وتصلح نظرية اليونان اللغوية ان تطبق على جميع اللغات لأنها تطورت تطورا موضوعيا . اما النظرة العربية الاسلامية الى اللغة فلا يمكن تطبيقها اساسا الا على اللغة العربية نفسها لأنها لم تنبع من مبادىء منطقية موضوعية صرف . ولذلك يمكن ان يفهم السبب الذي جعل اللغتين الادبيتين الكبيرتين الفارسية الحديثة والتركية العثمانية المعتمدتين على العربية ، لا تستطيعان تطوير نظرية لغوية خاصة بهما . فالفارسية الحديثة الهندوجيرمانية ابت ان تخضع لنسق لا يصلح الا للغة العربية .

وتختلف التقسيمات فى النحو الاسلامي ، حتى فى مظهرها ، عن التقسيمات فى نحونا اختلافا كليا . فعلى اساس التوازن المنطقي بين الكلمة والمعنى وبين الجملة والحكم ، تنقسم قواعدنا النحوية الى دراسة تكوين الكلمات اي علم الاشكال ، ودراسة تكوين الجمل اي (Syntax) . اما النحويون العرب فينهجون نهجا آخر ، فهم يميزون بين المفردات من الناحية النحوية الصرف فقط ، حسب نهاياتها وحسب عملها الذي تعمله فى الجملة . ثم يكفي تقسيم المفردات تقسيما خارجيا لا يستند الى بنيتها ، وخلال هذا التقسيم الى مفردات مختلفة الانواع يمكن استخراج نظرية حول تكوين الجمل ، لأن الكلمات تتغير فى نهاياتها حسب موقعها من الجملة .

وتقسيم الكلمات هذا الى انواع ، هو الذي أدى بي الى نقطة الانطلاق فى هذا البحث . فيقسم العرب جميع مواد كلامهم الى ثلاثة اقسام : الاسم ، (1) والفعل (1)،والحرف (1) الذي نعبر عنه نحن بالجزيء. وهذا هو التقسيم الذي اخذه رويشلين من القواعد القومية اليهودية المقتبسة هي بدورها من القواعد العربية القومية . وقد ظن الناس فى الاول ان العرب مدينون ، فى معاني قواعدهم الاساسية هذه لتأثير أجنبي وبالاخص تأثير يوناني . مع العلم اننا ، نحن الغربيين ، لم نعرف الا بعض المؤلفات النحوية التي تحمل آثار التعريفات الارسطوطالية . وقد ظهرت هذه المؤلفات فى وقت متأخر نسبيا وجاءت مرتبطة بأصلها ارتباطا جديرا بالملاحظة ولم تنفصل عنها الا نادرا . بذلك كان من الممكن ان ينشأ اخيرا الاعتقاد القائل ان القواعد القومية العربية ارتكزت على الفلسفة اليونانية ، العكس تماما لما تواتر عند العرب الذين يعتبرون القواعد القومية علما عربيا محضا . وبهذا الاعتقاد فقد الغربيون ملكة تقدير المصادر القديمة بموضوعية ونسوا ان هذه المراجع الاصلية اقدم من التاريخ الذي دخلت فيه الحكمة اليونانية العالمية فى دائرة الفكر العربي . وقد أتى بعضهم بدلائل ضعيفة جدا ليحاول ان يجد فى انشاء المعاني عند النحو العربي تأثيرا من القواعد اللاتينية وذلك عند ما قارنوا بين الاصطلاح اللاتيني (Terminus) والعربي « حرف» مع ان « حرف » يدل على شيء من الملفوظ او المكتوب صغير ليس محدودا فى حجمه ، ابتداء من حرف او حرف متحرك حتى الكلمة وعبارة ، وجزء من جملة . ولا ينبغي فهم هذه الكلمة التي نعبر نحن عنها بكلمة (Partikel) اي قسم الكلام الثالث ، كما يفهم اليوم . فالمفهوم العربي لهذه الكلمة ليس كذلك. يقول سيبويه ان الكلام ينقسم الى ثلاثة اقسام : الاسم والفعل والحرف (1) ثم يعرف الحرف ويوضحه كما يلي : يعبر الحرف عن معنى ليس بالاسم ولا بالفعل . ولذلك فكلمة « حرف » تعني شيئا آخر،غير الحرف المفرد أو مجموعة من الحروف التي تكون كلمة لا معنى لها بذاتها . كل ما ليس اسما أو فعلا ينتمي الى الحرف ويأتي بمعنى . ولا تمت هذه الكلمة الى الكلمة اليونانية (Syndesmos) بصلة . وفى العبارة « حرف معنى (1) » كما كان يسمى القسم الثالث فى الاصل يقع الوزن فى الكلمة الثانية «معنى» ويمكن التعبير عنه فى لغتنا بـ « مجموعة من الحروف الأبجدية الدالة على معنى » .

(1) بالعربية فى الأصل وترجمها المؤلف الى الالمانية

يستعمل النحويون اليهود مرارا وبكل بساطة ترجمة عبرية لهذه الكلمة « معنى » للتعبير عن القسم الثالث للكلام . ولا يمكن التحدث عن استعارة من اليونان . والمطابقة بين الاصطلاح العربي « اسم » والاصطلاح اليوناني (Onoma) ( تسمية شخص أو شيء ) على قسم الكلام الاول ليس الا صدفة محضة . ولا علاقة ايضا بين الاصطلاح اليوناني (Rhéma) ( هذا الذي يحكى على شخص ) والاصطلاح الدال على قسم الكلام الثاني « فعل » في العربية .

فالفاعل عند النحويين العرب ليس هو الفاعل عندنا . كان هذا الاصطلاح في الاصل اصطلاح علم المنطق ونقله اليونان الى النحو ويعبر عندهم عن الكلمة التي يقال عنها شيء . لا يعرف النحو العربي هذا المفهوم الاصلي لكلمة « الفاعل » . فليست الجملة عند النحويين العرب حكما بل سلسلة من الكلمات الدالة على معنى . ولذلك ، فثمة انواع مختلفة من الافعال حسب هذا الشيء الذي يقال عنه . فاذا بديء بالفعل سمي الفاعل ، الذي في محل رفع ، « فاعلا » . ولكن اذا بديء بالاسم سمي الفاعل « الكلمة التي بدىء بها » واذا بنيت الجملة للمجهول اصبح الفاعل غير فاعل ولكن مفعولا وسمي المفعول الذي لم يسم فاعله » .

وقد ظهرت هذه المعاني النحوية الاساسية عند اقدم النسقيين العرب . كانت المادة المخصصة للعمل محدودة للغاية ولذلك كان ينبغي أن يهتموا وخلفاؤهم معهم بالركن العلمي الثاني ، اي العقل ، المدبر والمرتب ، اكثر من اهتمامهم بالركن الاول ، فبهذه الطريقة قد يكون ما يضيفه العالم الى المادة أكثر من المادة نفسها التي يستخدمها .

وبالاضافة الى ما سبق ، فان العرب لم يهتدوا الى مقارنة العربية بلغات سامية اخرى لانهم كانوا يكادون يجهلونها . اما تطبيق المنطق على اللغة فلم يكن ممكنا لانعدام النسق عندهم . ولهذا السبب تمت جميع أعمالهم على أساس مبدأ واحد : القرآن كلام الله وهو العقل والمنطق . ولغة القرآن اذن مثال اللغة العربية ونموذج تعبيراتها ، ولا بد أن يظهر في كل جزء من بنائه المنطق الالهي . واذا كان اليونان قد سووا بين اللغة والفكر وبين قوانين اللغة وقوانين الفكر ، فالنحويون العرب قد سووا بين اللغة العربية والمنطق الالهي وواجب النحويين هو ازالة الحجاب عن المنطق الذي يكمن وراء الكلمات واكتشاف أسرار اللغة ( أسرار العربية ) (1)

ويسعى العالم النحوي الغربي ، من وراء الظواهر اللغوية الى استخراج قواعد تمكن من تفسير تطور لغوي . اما بالنسبة للعالم للغوي العربي فاللغة مبنية نفسها بناء منطقيا وينبغي له أن يستدل على منطق هذه القواعد ويبرهن على أن كل كلمة اينما تقع في هذا المكان على أساس من المنطق السليم ، وانطلاقا من ظواهر استثنائية معينة يقيم النحويون العرب المتأخرون ــ باستدلال صارم ــ قاعدة لغوية مطلقة وقد لعبت هذه القاعدة دورا صغيرا في مرحلة النحو العربي المتقدمة لانها غير عقلانية ولم تلائم حياة اللغة ، بيد أن هذا الدور نما فيما بعد نموا غير طبيعي واصبح النحو علما محتاجا الى استدلال ومعيار بدلا من أن يكون علما مفسرا وشارحا .

وهذا مثال لمنهجهم : تقتضي كلمة الاستفهام العربية « كم » المنصوب بعدها . لماذا ؟ يفكر العالم النحوي العربي كما يلي : تحل « كم » محل عدد . ولا يعرف السائل هل « كم » حالة محل عدد صغير أو كبير . واعراب ما بعد العدد يختلف اختلاف وقوع العدد في احدى المجموعات الثلاث : ( 3 ــ 10 ) أو ( 11 ــ 99 ) أو ( 100 فما فوق ) وبما أن الجواب غير معروف بالتأكيد فان الاختيار المنطقي الوحيد هو مجموعة الوسط ( 11 ــ 99 ) . وهذه الملجموعةتقتضي المنصوب وكذلك ــ اذن ــ « كم » .

هذا مثال نموذجي لحوار النحويين العرب . فالقواعد العربية شاملة صارمة ولا تقبل الاستثناءات . واذا حدث انحراف عنها يستعان بالتشبيه للدلالة على ان هذا الانحراف منتظم في القاعدة . ويؤتي لأجل ذلك بوجه أو أوجه للشبه . واذا كان عاملان متشابهين يختار للثاني نفس العمل الذي للاول . ولا يهم ان يكون هذان العاملان قابلين أو غير قابلين للمقارنة . وبما ان كل المفردات تتكون من الحروف المتحركة وبما ان هذه الاخيرة أجزاء اقسام الكلام المختلفة يمكن ايجاد علاقة بين الاسم والفعل الماضي ، مثلا ، وكلما زادت اوجه الشبه الخارجية والداخلية أمكن التسوية بين اعمال العوامل المشبهة ، وبما أن هنالك خمسة أوجه للشبه بين الاسم والفعل الماضي فذلك يكفي مثلا

(1) بالعربية في الاصل .

لاثبات ان هذا الاخير له الحق ، بالضبط كالاسم ، ان يغير ، قبل سواه حركاته .

**يؤتي بالبراهين من كل ميدان ومجال . فمعروف** في الطبيعة مثلا أن السبب يسبق المسبب . ولذلك فلا تسمح اللغة ان تأتي الجملة الشرطية في المقام الثاني بعد جوابها في مركب شرطي . فهذه الجملة تدل على علة ولذلك يجب أن تسبق اما الايقاع الجميل والعرف الرفيع فيفسران لنا كيف يجب أن يتبع المجرور عامل الجر فيه ، على العبد أن ينتظر حتى يأخذ السيد مكانه . وكذلك يجب على الكلمة المعمول فيها أن تقع وراء الكلمة العاملة . فيأتي مثلا المضاف قبل المضاف اليه ويقع حرف الجر قبل المجرور به.

**فاللغة العربية صورة العقل والمنطق ونتيجة الفكر ، والعدالة والانسجام الالاهيين .** والاستثناءات من القاعدة توجد في هذا النحو بالندرة التي توجد بها الاستثناءات من العقل في الحياة . بل لقد برر بعض النحويين المتأخرين الاستثناءات من القاعدة بواسطة المنطق . وفي الحالات التي لم يكف فيها المنطق الفيت الاستثناءات بكل بساطة من المادة الاصلية ويقف عقل النحاة فوق المادة ويسهر على عقلانية اللغة ويتساوى في العمل المعياري مع القاضي الذي انيطت به اقامة العدالة الالاهية والمحافظة عليها .

تفصلنا عوالم عن هذا المنهج وهذه النظرة العلميين **بل من الصعب علينا بمكان أن نساير هذا النوع** من طرق التفكير ولا يمكن تفسير هذا المنهج ـ كما قلت آنفا بايجاز ـ خصيصا بالنسبة الى النحو القومي العربي ؛ بالتأثيرات الاجنبية . فالعلم اليوناني والعلم العربي مؤسسان على مبادىء متباينة تماما . ولكن ليس من الانصاف الاستهزاء بهذا العمل العلمي . فانه يصدر عن سبب سام الا وهو واجب الانسان الاساسي في القرون الوسطى الاسلامية اعني العبادة (1) أي خدمة دين الله . ومن ثمة يأتي واجب الفرد أن يحيا حياة مستقيمة ، ومهمة العلم هي تنسيق وتأويل ما أتى به الوحي والحديث لاقامة هذه الحياة المستقيمة . ومهمة النحو كعلم من علوم اللغة ، في نشر القرآن والحفاظ عليه مهمة ممتازة للغاية ، ومن ثمة يمكن تفسير جموده فيما بعد ولكن من ثمة أيضا جاء الدافع القوي الى العمل .

والمرآة التي بحثنا فيها عن صورة اللغة العربية اكثر من مرآة بمعناها المألوف ، فهي بؤرة اشعاع **ومصدر الضوء فيها هو الدين الذي ذابت اللغة العربية في أشعته لخدمة الاله .**

(1) بالعربية في الاصل .

**الورق المهرق** stencil

ذكر ابن الأبار ( الحلة السيراء ص 137 ) « انه كان لعبد الرحمن كاتب أعتاد أن ينشيء الرسائل الرسمية في منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق وهو من نوع الطباعة فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة » .

# اللغة العربية تماشي الأمة العربية إلى الأمام لأنها جزء حي منها


## الأستاذ إلياس قنصل
(عاصمة الأرجنتين)


كل سلاح وصل الى يد الاستعمار ، استعمله ، محاولا القضاء على القومية العربية .

انزل الاستعمار على المدن العربية قنابله ، ووجه الى صدور ابنائها رصاصه ، وهدم ، وخرب ، وشرد ، واعتقل ، ما شاءت له مطامعه .

ثم حاول ــ وقد رأى ان بطشه المكشوف لم يجد ــ زعزعة اركان الوعي القومي العربي من الداخل، فرشد الانصار ، وجند الاعوان ، واشترى الضمائر ، ولكنه على الرغم من ذلك ، لم يستطع الوصول الى ما يبغي ، فقد كان هؤلاء الانصار والاعوان من القلة ، وكانت اليقظة الشعبية من الشمول ، بحيث اخفقت محاولاته ، وراي نفسه كما رآه العالم ، متعثرا بأذيال الفشل ، لا يكاد يلملم ذاته من حفره حتى يقع فى حفرة ثانية .

واذا كان الخذلان قد اصابه فى محاولاته ، فليس المعنى ان المعركة التي استهدفت لها الامة أو بعبارة أصح أن المعارك التي ساقها اليها ، كانت معارك هينة لينة ، كلا ، لقد كانت جولات عنيفة ، تركت فى جوانب الامة جراحا ضمدت بعضها ، ولا يزال بعضها ينزف بالدم ، الى الآن .

صوب الاستعمار حرابه الى سائر مقومات الامة العربية :

الى اخلاقها ، يريد ان ينفذ بالفجور الى مناعتها ، فينهار تماسكها .

الى تاريخها ، يريد ان يشوه معالمه الواضحة العالية ليزيل الاتصال بين الماضي والحاضر .

الى نشئها ، يبغي أن يبث فيه من الانفلات ما يذيب شخصيته المامولة .

الى اقتصادها ، يرمي الى وقفه عند حد محدود، فلا يتفاعل مع امكانيات النشاط .

الى كل شيء .

**وقد كان « للغة العربية » نصيب وافر من تلك الحراب المصوبة التي تقطر بالسم الزعاف .**

**طلعت الدعوات العديدة تشير الى وجوب البحث فى « تطوير » اللغة ، ولم يكن القصد لا التطوير ولا ما يشبه ذلك من بعيد أو قريب .**

**كان القصد ايجاد البلبلة فى أجزاء الامة التي تتكلم هذه اللغة ، واحداث شكل من أشكال الفوضى قد يمتد الى عوامل لها علاقة وثيقة باللغة .**

كان القصد منها ــ الى ذلك ــ شغل فئة من حملة الاقلام بالاخذ والرد والمماحكات والمناقشات البيزنطية ، وصرفهم عن اذكاء نيران الحماسة فى النفوس لمحاربة الاستعمار .

**لا نقول ان جميع الدعوات التي تعالت مطالبة بالاصلاح ، كانت من ايحاء الاستعمار ، فقد تنزه بعضها،** عن ذلك ، ولكننا نقول **ان معظمها كان مدفوعا من الاخطبوط المذكور .**

والذي يراجع تاريخ هذه الدعوات يجد ظاهرةمن اغرب الظواهر لا يمكن أن تكون من عمل الصدف :

كانت هذه الدعوات **تطل برؤوسها عندما يشتد ضغط الشعب مطالبا بالحقوق المغصوبة .**

ان هذه الدعوات لم تكن تظهر ابدا فى فتـــرات السكون الـــياسي ، والاستكانة القومية وهي الفترات التي كانت حرية بأن تظهر اثناءها ، لأن هذا الاصـــلاح ــ اذا صح ان مرماه الاصلاح ــ يحتاج الى درس ، لا يتم الا تحت ظلال الاطمئنان .

قال هؤلاء فيمـــا قالـــوا :

**ان اللغة العربية فوق مستوى الجمهور ، وانها وقف على طبقة معينة من الامة ، وان هذا عيب مـــن عيوبها ، تلافيه ان تكتب بلغة الشعب بالعامية ...**

**ولو تم لهم ما أرادوا ، لقضي القضاء المبرم على واسطة التفاهم بين الاقطار التي تضمها الفكرة العربية**

**لقد رأى هؤلاء ان اللغة العربية ــ فى حالتهـــا الحاضرة ــ تجمع السوري الى المراكشي ، كما تجمع المصري الى اليوتي ، كما تجمع العراقي الى اللبناني حتى لا يكون بين المجتمعين اي فارق ، مهما كان ، فكان المقيم فى أقصى القارة الاسيوية كالمقيـــم فى ادنى القارة الافريقية .**

راي هؤلاء المطالبون باصلاح اللغة ذلك ، فهالهم **الامر الذي يكاد يكون منقطع النظير فى ادوات التفاهم، فعمدوا الى تفكيك هذه الوحدة ، وبرزوا بالنغمـــة « النشاز » : تحويل اللغة الفصحى الى العـــاميـــة ،** اي وضع حدود او شيء كالحدود بين اللهجات المختلفة بحيث يصعب التفاهم بين قطر وقطر ، واذا لم يصعب، فلا اقل من ان يكون ثقيلا .

**ولو كانت نية هؤلاء ما قالوه ، لدعوا الى رفـــع العامية من مستواها الى المستوى الذي تتقرب فيه من الفصحى** كما يفعل الزمن دون ان يشعروا ، فالاصلاح الحقيقي هو ان تتجه الى الكمال ، لا ان تتحدر الى الناقص ، ومن البديهي الذي لا يكابر فيه ان الفصحى هي رمز الكمال ، لا العامية .

وقال هؤلاء فيما قالوا :

**ان اللغة العربية ذات صرف معقد ونحو غامض ،** وان الافكار تنصرف عنها لهذه الاسباب التي يستطاع ازالتها بمحو جميع العقد منها ، وملاشاة الغموض ، اي بترك الحبل على الغارب ، لمن يشاء ، ويتحـــول الاعراب فيها من قضايا منطقية ذات قواعد،الى مجموعة من عناصر التشويش التي لا يضبطها منطق ، ولا تنتظم فى قاعدة . وينسى هؤلاء او يتناسون **ان جميع لغات الدنيا التي تتداولها المحافل المحترمة لا تخلو مـــن قواعد وقياسات وانظمة** وما اليها ، وان بعض اللغات التي يعتبرونها مثالية شواذ لا يقاس اليها ما فى لغـــة الضـــــاد .

وقالوا فيما قالوا :

**ان الاحرف العربية فى هندستها الراهنة ليست أحرفا تماشي الحضارة التي بلغتها الدنيا ، وان الواجب يقضي باستبدالها بحروف فرنجية ، أو بحروف لا هي بالفرنجية ، ولا هي بالعربية .**

وما يرمون اليه من هذا الاقتـــراح واضـــح : **انهم يرمون الى وضع حاجز بين الجيـــل الحاضـــر والتراث العربي القديم الخالد ، انهم يرمون الى القضاء دفعة واحدة،على ثمرات الفكر العربي فى الاجيال الماضية** وينسون أو يتناسون ان التراث الفكري العربي القديم لا يشكل مفخرة من مفاخر العبقرية العربية فحسب ، ولكنه يصل الينا ، وهو خلاصة التجارب الفكرية فى المدى العربي ، وهو عصارة الفلسفة العربية فى نظرها الى الحياة ، والى ما فى الحياة من مشاكل .

وقالوا فيما قالوا : اشياء كثيرة لا تحرج عن هذا النطاق ، ولكنها مفضوحة النيات ، مكشوفة المعاقل .

**لقد استطاعت اللغة العربية ان تعبر عـــن أدق الخوالج الانسانية ، وان تستوعب دقائـــق الفنـــون والعلوم فى مختلف العصور الماضية ، فكيف تعجـــز الآن عن النهوض بهذه المسؤولية** ، وقد سهلت أمامها الوسائل التي لم تكن متوفرة فى العصور الغابرة ؟ كيف تعجز الآن عن ذلك ، **وقد تكشف للعلماء كثير من اسرار تراكيبها ومشتقاتها كانت مغلقة على الذيـــن نقلوا اليها العلوم والآداب من الامم الغربية ؟**

نحن لا ندعو الى الجمود .

**اننا نعرف ان تقدم الحضاره يتطلب ان ترافق اللغة ما يظهر من اختراعات** ، ولكننا نعرف كذلـــك **ان اللغة العربية فى وسعها ان تجاري التقدم مجاراة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فهي لغة لها اتساعها فى مفرداتها ولها دقتها فى جلاء اخفى ما تنطوي عليـــه النفس من شعور ، ولها غزارتها فى منح ما يتطلبـــه الراغب فى استيعاب مكنوناتها الدفينة ، ولها جمالها الذي لا يماثله اي جمال فى اية لغة اخرى .**

**ان اللغة العربية فيها (( حياة )) يكاد المرء يلمسها كما يلمس الحياة في الكائن الحي الانساني ،** وهي ، الى انها اداة للتعبير والتفاهم ، **آصرة من أواصر القومية كان لها عملها في الاحتفاظ بهذه الروح التي نجدها الآن في العالم العربي .**

والاستعمار لم يكن على خطأ ، حين وجد فيها ، **قوة من قوى العروبة** ، بقاؤها على جبورتها ، نذير له بأن الوحدة العربية التي يخاف منها ، باقية الاصول ، ينميها الزمن ، ويغذيها الجهد المخلص **اربعمائة سنة أو نزيد ، بقيت اللغة العربية تجابه الطغيان العثماني ، مجابهة ، خرجت منها فائزة منتصرة** ، وارتد الطغيان مدحورا مكسورا .

وعادت قوى الشر التي حشدها الاستعمار الحديث ، فشنت عليها الغارات المتواصلة ، ولم تكن النتيجة الا ما شاء الحق ، **وبقيت اللغة العربية في حصن حصين من مناعتها الطبيعية** ، ولم تؤثر عليها هجمات الموتورين الحانقين .

والقومية العربية تعرف **ان اللغة احد الاسلحة الفعالة في درء الاخطار المخيفة بها** ، وهي لذلك تحرص على سلامتها حرصا لا يمكن ان يتسرب اليه الوهن ، وهي لذلك تمر بالدعوات التي تبدو بين الحين والآخر مرور الاحتقار والامتهان ، لانها تدرك ان الداعين لا يضمرون لها الاخلاص ، ولو اضمروه لتوجهوا الى ايجاد الاصلاح الحقيقي ، لا الى هذه الحملات التي لم تعد تخدع أحدا .

**ان لغة الضاد التي رافقت امتها في جميع الادوار وانبعثت منها الطرائف الخالدة ستظل تماشي هذه الامة في مراحلها الى الامام لانها جزء حي منها .**